كان الميل نحو الانقسام والتفكك يتقدم بمعدل يدعو الى الانزعاج . وقد أصبح المثل القديم الذى يقول « ان وجود ثلاثة يهود ــ معناه وجود أربعة أحزاب سياسية ــ قريبا جدا من الحقيقة . لقد حدث انشقاق فى صفوف حزب الماباى .. وكذلك حزب حيروت ، بل الحزب الشيوعى أيضا .

وهناك أيضا استياء وضجر متزايد بين الجيل الصغير ، نحو الجيل الأكبر من القادة ــ الجيل العتيق من اليهود الذين جاءوا من أوربا الشرقية . ومما أكد هذه الفجوة هو أن سياسيى المدرسة القديمة لم يبادروا فى سرعة بأن يفسحوا مجالا للجيل الجديد . لقد انزعجوا فقط من افتقار هذا الجيل للمثل والمبادىء التى كانت فى أغلب الأحيان تصل الى حد السخرية السافرة .

ومن الممكن ان نستطرد فى ذكــر نواحى القصور والفشل ، ولكننا ــ كيهود ــ يجب أن نعلم .. ان ما حققته اسرائيل وما فشلت فى تحقيقه ، يجب أن يقاس على ضوء ماحققته الدول الأخرى . فاسرائيل ــ بسكانها البالغ عددهم مليونين ونصف مليون ، كان اجمالى انتاجها القومى فى سنة ١٩٦٧/٦٦ يتساوى مع اجمالى الانتاج القومى لمصر التى يبلغ تعدادها ٣٠ مليونا .

وفى مقابل ذلك ، فلو أخذنا مصر فى فترة ما بين الحربين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) فسوف نجد صورة أخرى .. لقد خاضت مصر ثورتها الاجتماعية ، واختفت الطبقات الحاكمة من الباشوات وأتباعهم ، وحلت محلهم الطبقة الجديدة من صغار الضباط والتكنوقراطيين . وقد أصبح من العادى أن يحصل معظم الضباط على وظائف مدنية . وأصبح « صوت العرب » من العناصر السياسية الكبيرة فى كافة أرجاء الشرق الأوسط .

ومما لا جدال فيه .. ان الطبقة الجديدة كانت صادقة فى رغبتها فى تحقيق الانتعاش القومى والاصلاح الاجتماعى ، وكان بعض أعضاء هذه الطبقة من الرجال القادرين .. على حين كان البعض الآخر من الفاشلين . ولكن بصرف النظر عن الانجازات الضرورية، فقد فقدت الطبقة الجديدة تدريجيا .. مثاليتها والاحساس المشترك

فيما بينها . لقد بدأت تؤيد الأمر الواقع مادامت امتيازاتها التى تتمتع بها فى ظل النظام الجديد لم يمسسها أى ضرر ، وساعد على ذلك .. أن البوليس السرى أصبح يشكل دولة داخل الدولة ، وهو جهاز لا يستطيع بطبيعته أن ينحرف فى مجتمع مفتوح ، ولذلك فلابد له دائما من مجتمع مغلق بحيث أصبح رئيس الدولة نفسه هو مثلا الذى يقدم الكثير من الصحف ، وهو وحده الذى يعلم حقيقة ما يجرى .

ولكن مع ذلك .. فان الخبراء الاقتصاديين فى مصر ، لم يكونوا راضين تماما عن الأوضاع الحقيقية فيما وراء الأرقام والتصريحات الخلابة عن الانتصارات الجديدة فى الجبهة الاقتصادية .

ان هذه الأشياء لم تتضح الا بمضى السنين ، ولم تظهر أضرارها الا بعد أن وقعت فعلا . وعموما .. فقد كان عام ١٩٦٠ هو أوج الناصرية .

ولكن فى العام التالى مباشرة — ١٩٦١ — بدأ المد ينحسر . ففى شهر سبتمبر انفصلت سوريا عن مصر ، وفى العالم التالى اشتعلت الحرب الأهلية فى اليمن ، وتدخل ناصر بستين الف جندى فى حرب ضروس . وبدأ العالم الثالث فى التفكك .. فقد توفى نهرو واختفى كل من بن بيللا ونكروما وسوكارنو ، وبدأت تنمو معارضة متزايدة للناصرية .. حتى داخل العالم العربى .

وفى الوقت نفسه — وبرغم العلاقات الوثيقة بين مصر والاتحاد السوفيتى — فقد كانت لا تزال هناك علاقات طبيعية بين مصر وامريكا ، رغم انها لم تكن علاقات ودية . وقد جاءت نقطة التحول فى عام ١٩٦٤ . ولم يكن هناك سبب معين واضح لهذا التدهور الذى لم يحدث فجأة . لقد كانت حرب اليمن احد هذه الأسباب . وبالرغم من ان أمريكا كانت واحدة من بين الدول الأولى التى اعترفت بالنظام الموالى للناصرية هذا ، فقد أيدت أيضا السعوديين المؤيدين للملكيين فى اليمن . وقد وقعت عدة حوادث صغيرة أوضحت أن المصريين قرروا اثارة الامريكيين على قدر الامكان . فقد أحرقت الجماهير المكتبة الأمريكية فى القاهرة . ولم تسارع فرقة

المطافىء ـــ التى تقع على مقربة من مكان الحادث عبر الطريق ـــ الى التدخل . واسقطت طائرة مدنية أمريكية .. وكانت السلطات المصرية بطيئة حتى فى تقديم الاعتذارات التى تتميز بعدم الاكتراث. وبالاضافة الى ذلك .. كان هناك تردد متزايد فى أمريكا لتقديم ـــ أو الاستمرار فى تقديم ـــ مساعدة اقتصادية الى مصر . وقد أدى هذا الى اثارة غضب القاهرة بدرجة كبيرة .

أما بالنسبة للعالم العربى فى فتـــرة ما بين الحربين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) فقد كان هناك غليان لم يسبق له مثيل . فاذا بدأنا بسوريا .. فاننا سنجدها على الدوام أكبر البلدان تطرفا . وتعتبر الانفعالات السياسية فى سوريا أكثر حدة منها فى البلدان العربية الأخرى وأكثر تعصبا . ذلك أن السوريين ـــ على عكس المصريين ـــ لايشتهرون بروح الفكاهة . ان سوريا بلد يتسم بالتعاسة . لقد عاشت عدة انقلابات عسكرية خلال تاريخها القصير أكثر من أى بلد عربى آخر . والاحتكاك بين الجماعات الدينية والعنصرية لا يزال له أكبر الأثر على الحياة السورية .

وعموما .. فان العالم العربى ـــ بل العالم كله ـــ كان يشهد تصعيدا فى حدة المشاكل القائمة ، بحيث أنه عندما وصلنا الى سنة ١٩٦٧ وكان ربيع تلك السنة ينذر بأنه قد يصبح أكثر خطورة من أى عام سابق . لقد صعدت أمريكا حربها فى فيتنام .. واصبح هناك خوف من أن يكون صيف ١٩٦٧ أكثر سخونة من الصيف السابق . وكان للاتحاد السوفيتى هو الآخر مشاغله الخاصة . لقد تتابعت تلك التطورات العالمية فى بداية تلك السنة ، بحيث أصبح من الصعب ـــ ان لم يكن من المستحيل ـــ تحقيق التقدم بالنسبة لأية قضـــية على الاطلاق .

وفى مايو ١٩٦٧ ـــ كانت كافة العناصر التى تحتم اندلاع الحرب فى الشرق الأوسط قد اصبحت موجودة ومؤثرة ، واصبح هناك مزيد من التوتر لم يسبق له مثيل بين سوريا واسرائيل انضمت اليه مصر ، وسرعان ما بدأت الأحداث المعروفة من طلب مصر سحب قوات الطوارىء الدولية ، الى اغلاق مضايق تيران .

ولقد نشبت الحـــرب فى شهر يونيو .. نتيجـــة لسلسلة من الحوادث بدأت قبل ذلك الموعد بثلاثة أسابيع ، انها حالة تنطوى

على الكثير من الشواهد التى تنم عن التصعيد .. ذلك ان حادثة تقود الى اخرى ذات نتائج مؤكدة .. كما أن التقديرات بدت أكبر مما كانت عليه فى الماضى ، فضلا عن ان الارتجال والمصادفة قد لعبا دورا كبيرا ، كما أن التصريحات سرعان ما بدأت تتسابق لتصعيد الموقف من كلا الجانبين .

ولكن المشكلة على الجانب العربى .. كانت الضوضاء الهستيرية التى تصبح ضارة من النقطة التى يبدأ فيها أصحابها فى تصديقها، لأنها تدل على حالة نفسية سرعان ما أدت الى نتائج مادية فى ساحة القتال .

واذا كان اسلوب الاذاعات وأجهزة الاعلام العربية ــ وخصوصا المصرية ــ فى تلك الأسابيع الثلاثة ، اذا كان قد بدا ناجحا وقتها .. فانه نجح لان المستمعين أرادوا أن يسمعوا دعاية من هذا القبيل، وهى الدعاية التى خاطبت مشاعرهم أكثر من الاسلوب الغربى ؛ (أو حتى السوفيتى) غير العاطفى . ويتعين اجراء دراسة خاصة حول مسئولية اذاعة القاهرة فى الكارثة التى حلت بمصر عام١٩٦٧ . لقد كان هذا النوع من الدعاية هو مصدر قوة ظاهرية ، ومصدر ضعف حقيقى على السواء . وقد أمكن ادراك ذلك ــ ولكن بعد ان وقعت الهزيمة العسكرية .. فان مجلة (المصور) المصرية قالت بعد الهزيمة مثلا .. (لقد كنا نقول أشـياء لم نكن نعنيها على الدوام ، ومن ثم عادينا كذلك أصدقاءنا) .. ومما لا شك فيه أن هذا صحيح ، الا أن عمل استقصاء حول آثار هذه الدعاية لا يتعين ان يكون محدودا فى اطار الأثر الذى أحدثته فى الخارج . لقد وقع تأثيرها أساسا على العرب ، ومن ثم كان أصحاب الدعاية هم أولا واخيرا ضحاياها . لقد أدت تلك الدعاية الى اثارة توقعاتهم الى النقطة التى يجب عندها أن تتحقق الوعود . لقد أدت مثل تلك الدعاية الى تقوية الميل الداخلى لكثير من العرب نحو خداع انفسهم .

ان العرب يتمتعون بكثير من الصفات الجذابة (التى يفتقر اليهود الى بعضها) فهم يتمتعون بمقدرة تكاد تكون غير محدودة

على أن يؤمنوا بما يريدون أن يؤمنوا به . ان هذه السمة من سمات الشخصية العربية لا يمكن التأثير عليها بقوة . انهـــا توضح كل ما يتعلق بنشوب الحرب وما خلفت من آثار . ذلك ان الدعاية التى كانت تنبعث من القاهرة ودمشق وبغداد ، كالسيل المنهمر حول ما يتميز به العرب من ثقافة وتقدم اقتصادى وقوة عسكرية .. قد قبلت بحماس لانها تتفق والحاجة العاطفية لشعب أبى .. تلك الحاجة التى قويت بدرجة كبيرة فى كثير من المجـــالات فى القرون الأخيرة ، ولكنها لم تستطع أن تتمشى ومكانتها فى العالم الحديث ، وانما كانت تشعر باستياء تجاه هذا العالم . ومن هنا جاءت الحاجة الى خلق عالم خيالى .. حيث يمكن حل كافة المشكلات الهائلة التى يتعرض لها العرب . وفى ظل هذا العالم الخيالى يمكن بناء المشروعات الصناعية فى وقت قصير للغاية ، كما يمكن كسب المعارك دون اية خسائر ، والقضاء على الأعداء .. ففى هذا العالم الخيالى لا توجد مقاومة ولا توجد عقبات .. وقد أدت هذه الدعاية الى خلق التخيلات بين العرب حول قوتهم ودعمت ميلهم ــ الذى كان قويا على الدوام ــ الى تجاهل الحقائق غير المرضية . وفضلا عن ذلك .. فان هذه الدعاية لم تؤثر على الجماهير فقط ، وانما اثرت فى المدى الطويل على القادة أنفسهم ، وانعكس ذلك بالطبع على آرائهم ، وعلى ما يصدرونه من احكام .

ومثلما كان للدعاية العربية فى ١٩٦٧ أثرها على العرب انفسهم، فان المشكلة كلها ، حتى نشوب الحرب فعلا ، كان لها اثر عميق على الرأى العام فى جميع بلاد أوربا وأمريكا .. ولم يحدث منذ الحرب الأهلية الأسبانية ان كانت المشـــاعر منقسمة بمثل ما حـــدث فى الاسابيع الثلاثة السابقة على خمسة يونيو ١٩٦٧ .. ذلك ان هذا النزاع أصبح لفترة من الزمن مسألة داخلية خطيرة فى فرنســـا وايطاليا ، بل كانت هناك مشاهد عاصفة داخل البرلمـــان الهندى.

ان وضع تحليل دقيق للرأى العام ــ ابان الأزمة ــ فى عدد من دول العالم لا يمكن أن يتم الا فى صورة كتاب قائم بذاته ، بل ربما سلسلة من الكتب ، ولكن الاتجاهات العامة ظهرت وقتها بوضوح حتى من خلال عمليات البحث السطحية .

لقد تلقى ناصر والسوريون تأييدا كبيرا ، بل متحمسا فى أغلب الأحيان من جانب العالم العربى وشمال افريقيا والعالم الاسلامى .. أما خارج نطاق هذه الدائرة ، فكانوا ينعمون بالبركات الرسمية من الكتلة السوفيتية والصين وبعض دول آسيا وافريقيا .. أما اسرائيل فقد كان هناك عدد كبير من المتعاطفين معهـــا فى أوروبا والأمريكتين ، بالاضافة الى عدد أقل فى أجزاء من آسيا وافريقيا .

ان هذا السرد لتطورات الأزمـــة ينتهى صـــباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ .. وان ازيز طائرات الميستير والميراج التى أخذت ترتفع من المطـــارات الاسرائيلية ، يمكن أن يزود أحـــد المخرجين السينمائيين بنهاية دراماتيكية .. فى حين أن هذه النهاية غير مرضية من وجهة نظر المؤرخ للاحداث ..

ولكن ، من الواضح انها النهـــاية القاطعة لهذه الدراســـة ، اذ أن ذلك اليوم قد شهد سلسلة جديدة من الحـــوادث لم تظهر نظريتها فى الأفق بعد .. فقـــد حجبت الحرب والنصر الاسرائيلى السريع الفترة التـــاريخية التى ســـبقت النزاع ، فتـــرة المخاوف والشكوك والتردد .. ولكن من الأشياء التى سرعان ما أصبحت فى طى النسيان ، ذلك الارتباك والقـــرار المشئوم الخاص بفترة التأهب للقتال .

لقد أدت الحرب الى تغيير نظرة الجميع الى الأزمة التى سبقت الحرب .. وكذلك فانها القت أضواء ضخمة على سياسة الحكومة الاسرائيلية ، الى درجة أن التردد أصبح يبدو وكأنه أمر مقصود وحتى الاخطاء اخذت شكل المناورات الروتينية .. وفى الواقع انه ــ برغم كل تصور ــ فان نتيجة الحرب كما نعرف جميعا الآن ، لم تكن قط موضع جدل . ويحتمل الا تكون النتيجة قد تغيرت كثيرا لو ان الحرب قد نشبت فى الخامس والعشرين من مايو أو فى الخامس عشر من يونيو .

العـــرب وإســرائيـــل

تـأليف: تشـارلز دوجلاس هـيـوم

هذا الكتاب

وهذا المؤلف

يقوم هذا الكتاب على نظرية اساسية ، هى أن المشكلة بين اسرائيل والعرب هى أساسا مشكلة سياسية ، ولا يمكن حلها عسكريا . وما دام العرب — منذ ١٩٤٨ حتى الآن — لم ينفذوا فعلا اية حلول عسكرية ضد اسرائيل ، فمن المفهوم أن المؤلف يقصد بمنطقه هذا .. ان يدحض الاساس الذى يعتمد عليه التفكير الاسرائيلى . ان المؤلف يقول فى الكتاب بصراحة : ان اعتماد التفكير الاسرائيلى على استخدام الحلول العسكرية فى كل مرة ، هو أمر لا يحل فى النهاية أى شىء ولا يغير أى وجه من أساسيات المشكلة.

واذا كانت هذه تعتبر نقطة ايجابية فى تفكير المؤلف ، فان هناك نقاطا أخرى كثيرة يختلف فيها المؤلف مع تفكيرنا تماما .

ان المؤلف هو « تشارلز دوجلاس هيوم » وهو انجليزى قام بتغطية اخبار حرب ١٩٦٧ صحفيا باعتباره مراسلا حربيا لصحيفة « التايمز » البريطانية . لقد وصل الى اسرائيل قبل نشوب الحرب بأسابيع قليلة ، واستمر هناك الى انتهاء الحرب .

وفى تحليل المؤلف لاسباب حرب ١٩٦٧ ، فانه يقول ان شيئا ما لم يكن ليوقف اسرائيل عن الهجوم .. اللهم الا أن تعلن أمريكا وبريطانيا انهما سوف تساندان العرب ، وهو الأمر الذى يرقى الى مرتبة الاستحالة من الناحية السياسية .

ومع وجود خلافات كثيرة مع النتائج التى انتهى اليها المؤلف فى فصول الكتاب الا أن المؤلف فى كتابه هذا .. يمثل نموذجا للاسلوب

البريطانى فى تحليل مشكلة فلسطين ومشكلة الوجود الاسرائيلى فى الشرق الأوسط .

* * *

منذ قيام دولة اسرائيل فى مايو ١٩٤٨ نشبت حروب ثلاث بينها وبين جيرانها العرب ، ومع انتهاء كل حرب . كان انتصار اسرائيل العسكرى أكثر مضاء من سابقه ، وهزيمة العرب اشد اذلالا من سابقتها ، ومع ذلك .. فليس هناك ما يدل على ان جيل المنازعات هذا قد ولى وانتهى .

ولقد ترتب على كل حرب موقف متغير . فالحرب الأولى تمخضت عن قيام اسرائيل ، والثانية دعمت مركزها ، اما الثالثة (١٩٦٧) فقد حققت لها امبراطورية ، غير أنه ليس هناك ما يدل على وجود نهاية لكل هذا ، ان الشك فى النوايا الطيبة من كلا الجانبين .. والشعور بتغير ميزان القوى . كلها اتجاهات مألوفة فى الفورة الأولى لفترة ما بعد الحرب ، ثم لا تلبث تلك الاتجاهات أن تذوب وتتفتت تدريجيا على صخرة المستحيلات السياسية فى الموقف العربى .

ان المشكلة بين اسرائيل والعرب هى مشكلة سياسية .. بلا حل عسكرى . لقد واتت الشرق الأوسط فرص أكثر مما واتت غالبية المناطق الاخرى فى العالم لكى يكتشف بصفة قاطعة .. انه لا يمكن حل المنازعات بمجرد استخدام السلاح .

واذا كان النزاع بين العرب واسرائيل هو أكثر من مجرد صدام بين جيوش متصارعة — أو حتى بين مجتمعات متصارعة تدعمها قوات عسكرية — فماذا عساه أن يكون اذن ؟

لعل من الضرورى ، استبعاد الاعتقاد الحالى بأن هذا النزاع مظهر آخر من مظاهر العداء للسامية من ذلك النوع الذى قد يجده المرء فى نوادى الجولف البريطانية او الامريكية . انه ليس بالتحديد نتاجا لنفور عنصرى بين العرب واليهود ، فتاريخ الجماعات اليهودية فى العالم العربى ليس على نصف بشاعة تاريخها فى المجتمعات المسيحية أو الشيوعية فى اوربا . ومن

الانصاف أن نقـــول بأن الجاليات اليهـــودية انتعشت حضاريا وتجاريا فى جو تسوده درجة كبيرة من الأمن فى العالم العربى ، خلال العشرين قرنا الأخيرة وهو ما لم يتوافر لها فى أوربا . ومهما قيل بشأن حل مشكلة اندماج اليهود فى المجتمعات الأوربية ، فليس لهذا أية علاقة بمشكلة فلسطين ، لان اختيار الصهيونية لفلسطين اعتمد على ان الشرق الأوسط يســـتطيع أن يمتص عنصرا جديدا تماما دون حدوث مضاعفات شديدة .

لقد اصبحت اسرائيل تملك الآن كلا من القوة والقدرة على أن تبقى وسط منطقة معادية لها ، ولكن ليس لديها القوة ولا القدرة على تغيير هذا العداء دون أن تغير هى الأخرى نفسها . والنقطة التى اريد أن أوضـــحها . هى أن اسرائيل التى كانت العنصر اليهودى فى المســـألة الفلسطينية ، قد تخطت مرحلة التبعية واصبحت العنصر الأقوى فى مستقبل فلسطين .

انها اذن مشكلة جغرافية بأكثر مما هى مشكلة عنصرية . ذلك أن النزاع فى الشرق الأوسط أصبح قائمـــا الآن بين دول ذات سيادة ، وليس بين ممثلين لاجناس مختلفة ، لهذا السبب .. فان حل المشكلة العربية الاسرائيلية لا يكمن فى حل مشكلة اليهود عالميا ، وانما يكمن أكثر فى تحقيق توازن اقليمى محلى بين دول الشرق الأوسط واسرائيل واحدة منها .

ولقد تحقق توازن اقليمى بين القوى فى المنطقة . ومع انه حدثت تغييرات وربمـــا تحدث تغييرات أخـــرى ، فان النقطة الجوهرية هى أن التوازن يعكس تركيب القـــوى المحلية ، ولا يتأثر بدرجة خطيرة بأية قوى خارجية .. ولا يمكن لاى حل الآن أن يتضمن الرجوع الى الموقف الذى كان سائدا حينما كان شعب آخر مســـئولا عن المنطقـــة ــ اى قبل عام ١٩٤٨ ــ والا كان معنى ذلك المطالبة باعادة انتـــداب بريطانيـــا .. أو مطالبة الاتراك بالعودة أو حتى مطالبـــة الرومان بأن يفعلوا ذلك . ان المرء لايستطيع أن يوسع نطاق بحثه لمشكلة ما .. اكثر من الاطار الذى تدور خلاله الأطراف الراهنة للمشكلة .. ان سلطتنا فى المنطقة انتهت بانتهاء مسئوليتنا فيها ، ومعها تلاشت قدرتنا .

والقضية فى الواقع ، ليست قضية الوجود الاسرائيلى فى حد ذاته كسبب للنزاع . ولكن هذا الوجود يساعد على خلق ظروف يجدها العرب غير محتملة . فلو أن اسرائيل قامت كدولة عربية، لما كان هناك نزاع .. اللهم الا بين اسرائيل والأردن حول استعادة تلك المناطق من فلسطين التى ضمتها الأردن بعد حرب ١٩٤٨ .

لقد انتهت حرب ١٩٤٨ بتسويات مؤقتة للحدود وباتفاقيات للهدنة ، مما جعل هذه الحدود تصبح بعد ذلك مصدرا للنزاع المستمر — والواقع أن مشكلة الحدود كانت مجرد تعبير عن نزاع سياسى أعمق وأوسع بين الطرفين ، ولأن خطوط الهدنة كانت حقا غير منطقية وفى بعض الأحوال غير عملية بالمرة ، فانها سهلت للعرب التعبير عن استيائهم السياسى العام . لقد كانت حوادث الحدود فيما بين سنتى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ هى دائما العملية التى يعبر بها العرب عن استيائهم ، كما أنها أيضا كانت تعبيرا غير مباشر عن عدم قدرتهم على القيام بأى ضغط فعال على اسرائيل — وهو تعبير ان دل على شىء فانما يدل على خيبة أمل .

ومن ناحية أخرى .. كانت اسرائيل من حين لآخر — تكيف استراتيجيتها وفق اسلوب عسكرى منعزل تماما عن العوامل السياسية الأخرى ، يدفعها فى ذلك شعور بالثقة فى تفوقها العسكرى . وتجدر الاشارة هنا الى فقرة كتبها الجنرال « موشى دايان » رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى سابقا ووزير الدفاع الآن ، تناول فيها سياسة الردع الاسرائيلية ، لانه يكشف فى هذه الفقرة عن عدم المرونة ازاء مثل هذا الوضع . واذا كانت الاستراتيجية تدل على شىء ، فانما تدل على الافتقار الأساسى الى العمق فى الفكر العسكرى . ان ضرب فيتنام الشمالية بالقنابل الامريكية يقوم أساسا على مبدأ رفع ثمن العدوان فى مصدر العدوان . وهذا بالضبط موقف اسرائيل العسكرى ، دون أن يدل ذلك على أى أمل قائم فى ايجاد حل لمشكلة أمن الحدود .

يقول دايان فى كتابه « حملة السويس » مفسرا سياسة الردع :

« كان الهدف هو أن نبين للعرب انه بينما قد تعجز اسرائيل عن حماية حياة كل سائق جرار يحرث بالقرب من الحدود ، أو

ان تمنع بث الالغام بالقــرب من طريق قــرية .. فان الدولة المسئولة عن المخربين لن تفلت من العقاب .. وعندما تقوم قوة اسرائيلية بعمليات داخل الأرض العربية دون أن تتمكن الجيوش المحلية من ان تتحداها تحديا جديا ، فان الفشل العسكرى للدول العربية يفتضح علنا أمام شعوبها . وهكذا ، فانه بدلا من أن يرتفع شأن الأنظمة العــربية . فان النتيجة النهائية لاعمــال الفدائيين هى اهتــزاز ثقة الشعوب بتلك الأنظمــة وبقواتها المسلحة » .

ولقد احسنت بريطانيا للصهيونية احسانا كبيرا ، ومع ذلك فربما تكون قد اساءت للعرب أشد الاساءة .. وربما ألقى هذا على بريطانيا مسئولية أكبر لبذل مساعيها الحميدة ، وان تفهم أن جانبا ضخما من متاعب هذا النزاع يقع عبؤه عليها . بيد انه لم يكن العرب من الضعف بحيث تستطيع اسرائيل أن تحطمهم . كما انهم لم يكونوا من القوة بحيث يدمرون اسرائيل . ومن ناحية أخرى ، فبينما كانت اسرائيل من القوة بما يجعلها ترد فى كل غارة انتقامية ردا قاسيا ، فانها لم تستطيع أن ترد على نحــو يجعل العرب لا يعودون الى تكرار ذلك مرة أخرى .

لقد نشأ الخطر فى هذا الموقف .. لان كلا الجانبين كان مقتنعا بأنه على حق . ولم يكن أيهما قويا ماديا بما يكفى لدعم هذا الحق على نحو يحسم النزاع ..

ولقد كانت حرب ١٩٥٦ نفسها هى فى نوعها اجراء انتقاميا كبــيرا قامت به اسرائيل ، تشــمل كافة الدوافع النفســية والسياسية وكذلك الاقتصادية .. التى لم تكن موضع الاهتمام فى السنة السابقة على الحرب .

وقد أدت حرب السويس سنة ١٩٥٦ الى بعض التغييرات السياسية الكبرى فى المنطقة ، كما جلبت الســلام على حدود اسرائيل . ورغم أن الجامعة العربية أعلنت عن مشروعات لمزيد من المقاطعة للبضائع الاسرائيلية .. فان العرب كانوا الجانب الأضعف ، وكانوا منقسمين على انفسهم ، ولجأوا الى حملات

الدعاية ضد بعضهم البعض أكثر مما كانت هذه الحملات ضد اسرائيل .

ولقد كانت السنوات التالية بين حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ هادئة نسبيا بالنسبة لحوادث الحدود بين اسرائيل والدول العربية، ولكن الموقف الأساسى ظل كما هو . أن رد الفعل التلقائى لاسرائيل استمر معتمدا على تصور أن كل حركة سياسية تمر بغير رد ، وكل مناورة بدون صد من جانب اسرائيل .. فان هذا يشكل خطرا ماحقا على مستقبل أمنها . بهذا الأسلوب تجمدت المشكلات السياسية فى المنطقة ، لان أى تغيير محتمل لم يكن يفسر من جانب اسرائيل الا من زاوية عسكرية بحتة..ويبدو أن خيال الاسرائيليين الخصب قد تكيف مع سنوات من المناوشات على الحدود بحيث لم يعد يتقبل سوى مفهوم واحد هو : ان المشكلة فى جوهرها مشكلة عسكرية وليست مشكلة سياسية ، وانه لا يمكن تسويتها الا عسكريا .

لقد كان هذا هو الأساس نفسه الذى قامت عليه حرب يونيو ١٩٦٧ انها لم تكن من نوع الحروب التى تنشب فجأة ، لان كل حركة للاحداث كانت تسير سيرا سريعا منذ أوائل سنة ١٩٦٦ — ان هذا لا يعنى دخول أى عنصر جديد على أساسيات المشكلة .. وانما يعنى أن الخطوط القائمة زادت عمقا ، وان النقاش احتدم واكتسب مرارة أكثر ، وأن الأمزجة انحرفت أكثر ، وأن المهاترات تبودلت أكثر .. فاذا بالاحداث تدور دورتها بين فعل ورد فعل ، حتى لم يعد هناك مجال للمناورة .

لقد دارت الأحداث فى مايو ١٩٦٧ دورتها المعروفة من طلب مصر سحب قوات الأمم المتحدة ، الى قيام اسرائيل ومصر بالتعبئة، الى اغلاق خليج العقبة ، الى الحرب . وبصرف النظر عن الأحداث نفسها ، فانه مما يثير الدهشة فى أزمة ١٩٦٧ هو أن القيادة المصرية لم تظهر كثيرا من الحكمة فى طريقة معالجتها للأمور . صحيح أنه كان من المحتمل أن يكون ميزان الشرعية فى جانب مصر . الا ان هناك علامات استفهام تكتنف الحكمة من متابعة تلك السياسة حتى لو قلنا أن القيادة المصرية كانت تمارس حقوقها . ان الدهشة من تصرف القيادة المصرية أبان الأزمة تزيد خصوصا لو افترضنا انها

كانت تعرف قوة اسرائيل ورد الفعل المحتمل من جانبها ازاء تسلسل الأحداث . وخلال فترة الاسبوعين السابقين على نشوب الحرب فى يونيو ١٩٦٧ ، فان تصرفات القيادة المصرية أظهرت من سوء التقدير أكثر مما أظهرت من عدم الشرعية .

ان الحروب تسفر عن تسويات غير طبيعية فى الشئون الدولية . وهى غالبا ما تشتعل عرضا او نتيجة لسوء التقدير أكثر مما تشتعل طبقا لخطة موضوعة . ومن ناحية أخرى ، فان الدول المتحاربة يكون لديها فى العادة فكرة ما عن السبب الذى من أجله تبدأ الحرب — فاما انها تريد أن تكتسب شيئا من وراء ذلك ، وأما أنها تريد أن تمنع الجانب الآخر من أن يحرز شيئا . وفى كلتا الحالتين فان النتيجة قد تكون شيئا مختلفا جدا عما كان متوقعا أصلا من أى من الجانبين .

وعلى ذلك .. فلابد أن يسأل المرء نفسه : ماذا كان الاسرائيليون يتوقعون أن يكسبوا من حرب ١٩٦٧ ، أو ماذا كانوا يعتقدون انهم يمنعون العرب من احرازه ؟ وهل كانت اسرائيل تعتقد أن ثمة هدفا نهائيا وراء ما يمكن كسبه ، واذا كان الأمر كذلك .. فما هو هذا الهدف ؟

ان اسرائيل تقول — من جانبها — انه لم يكن أمامها من بديل فى سنة ١٩٦٧ غير الحرب . اننى اعتقد أن هذا غير صحيح . وحتى نصل الى هذه النتيجة لا بد أن نحلل التهديدات الحقيقية وأسوأ النتائج المحتملة فى حالة عدم حدوث رد فعل فورى ازاء هذه التهديدات على النحو الذى ردت به اسرائيل .

ان التهديدات التى تعرضت لها اسرائيل فى ١٩٦٧ ذات أوجه ثلاثة : فأولا — هناك التهديد العسكرى ، الناجم عن نية العرب المعلنة مرارا وتكرارا عن غزو اسرائيل . وثانيا — هناك التهديد الاقتصادى . وهو الناشىء أيضا عن نية العرب المعلنة عن تدمير اسرائيل اقتصاديا أو شل اقتصادها . وثالثا — هناك التهديد السيكولوجى الذى اذا لم توقفه اسرائيل فان العرب قد يصدقون خطتهم المبالغ فيها .

تلك كانت التهديدات . فهل اشتدت فى عام ١٩٦٧ على نحو يستحيل معه تحاشى وقوع الحرب ؟

ان ازدياد خطر ما ، لا يجعل من حق أحد الاطراف المعنية بالضرورة أن يفترض أنه لم يعد متبقيا سوى اتخاذ خطوة وقائية مباشرة ضد احتمال تزايد الخطر لمدى ابعد . لقد كان هناك خطر متزايد من نشوب الحرب خلال المواجهة فى كوبا بين روسياوامريكا، وكان هناك خطر متزايد خلال أزمة برلين . واحيانا هناك خطر يتزايد بدرجة كبيرة من احتمال نشوب الحرب بين اليونان وتركيا حول قبرص ، ومواقف أخرى كثيرة تبدو الوسائل الدبلوماسية فيها وقد اقتربت من الفشل التام ، بأكثر مما كان عليه الموقف بين العرب واسرائيل عام ١٩٦٧ .

اننى أعتقد بصفة عامة .. ان قرار اسرائيل بدخول الحرب فى ١٩٦٧ لم يكن قائما على اساس ضخامة أو عدم ضخامة الخطر الذى تعرضت له فى تلك الفترة . اننى أعتقد أن القرار اعتمد على ثقة مطلقة من جانب اسرائيل بأنها ستخرج من الحرب بوضع افضل من ذلك الوضع الذى وجدت نفسها فيه فى مايو ١٩٦٧ . لقد اعتمد هذا على حساب معقول وموثوق به — بل وتأكد — من أنها ستنتصر فى الحرب .

اننا نعلم . .انه ما من حكومة مسئولة تدخل فى حرب ما لم تكن على ثقة معقولة من النصر ، أو ما لم تكن تواجه الموقف البديل وهو الهزيمة الكاملة دون اطلاق رصاصة واحدة . وطبيعى ان تقول اسرائيل انها كانت تواجه هذا الاحتمال نفسه فى مايو ١٩٦٧ ولكن الاسرائيليين درجوا على عدم التزحزح عن الاعتقاد بأنهم فى وضع يبدو فيه بقاؤهم القومى معرضا لخطر أعظم مما هوبالفعل.. لقد سبب لهم ذلك موقفا يجدون فيه فى كل مرة ان لا بديل عن اثنين : أما الهزيمة التامة أو النصر التام ، وذلك حتى ولو كان الموقف أقل كثيرا مما يبدو .

لقد كانت المعادلة العسكرية بين اسرائيل وجيرانها ، تصورها دائما كدولة صغيرة مكونة من مليون ونصف مليون من البشر ..

تحيط بهم حلقة معادية تضم أربعين مليونا من العرب كلهم تصميم على تدميرها ، أى بنسبة ٢٠ ضد واحد ، لصالح العرب وضـــد اسرائيل . وقد يبدو هذا على الورق شيئا مثيرا للانفعال ، الا أن التقدير العسكرى للقوى النسبية للدول المختلفة لا يمكن أن يوضع على أساس عدد السكان أو حتى على أساس عـــدد الرجـــال المجندين فى القوات المسلحة فحسب .

ان جهاز الحرب فى صورته الشاملة ، أصعب كثيرا عند تقديره من مجرد الاعتماد على عدد السكان الاجمالى لدولة من الدول . ان تقدير مدى كفاءة الجهاز الحربى للدولة ينبغى أن يتضمن القـــدرة الصناعية للدولة . مثلما يتضمن معها القوات المسلحة ومقدرتها على اســـتخدام تلك المعـــدات ، وكذلك يعتمـــد على مـــدى كفاءة هيئة أركان الحرب فى شئون الادارة ، من حيث قدرتهـــا على الحفاظ على القوات المسلحة فى حالة من الانضباط وحســـن الاستعداد والتموين من أجل المعركة .

وعامل آخر لا يمكن تجاهله ، وهو طبيعة الأرض التى يحتمل ان تجرى عليها أية معركة ولعل أهم شىء أن يكون هناك هدف سياسى واضح لا غموض فيه أمام القوات المسلحة نفسها . فرغم التوسع فى فنون الحرب ، الا أن الجيش الذى يكون على درجة طيبة من التعليم والتثقيف يصبح ندا لخصوم أكثر عددا وقوة لو كانوا يفتقرون الى الحافز الضرورى .

وعلى الورق .. نجد انه على الرغم من عدد السكان ، فان آلة الحرب التى تملكها اسرائيل ليست بأى حال بنسبة ٢٠ الى واحد ضد اسرائيل ، اذا ما قورنت بما لدى العرب . ذلك ان اسرائيل تستطيع — فى مدى أيام قليلة بمـــا لديها من نظام احتياطى بالغ الدقة — ان تضع فى الميدان جيشا حديثا مدربا قوامه ٢٥٠ الف جنـــدى .

وفضلا عن انعدام أى قلة عددية ، فان اسرائيل كانت لديها ميزات جغرافية وتكتيكية أخرى . فقد كانت لديها خطوط المواصلات

الداخلية والقدرة على تحريك القوات بسرعة من جبهة الى أخرى ، والقيادة المركزية التى لا تتعرض ـ كما هو الحال بالنسبة للعرب ـ لحالة من التخبط والحيرة فى الطوارىء ، ازاء الأوامر المتعارضه والتصادم المحتمل فى التوجيهات السياسية من مختلف الحكومات المعنية . كما ان المصاعب الجغرافية التى تواجه شن هجوم برى شديد مدعم على اسرائيل هى مصاعب ضخمة ، لانه كان ينبغىعلى خطوط المواصلات المصرية أن تمتد وراء الجبهة عبر صحراء سيناء.

والى هنا .. فاننى لم أشر بعد الى قوة السلاح الجوى ، فالتفوق المطلق فى الجو كان دائما شيئا تحافظ اسرائيل عليه فى معاركها مع جيرانها العرب .

لقد حاولت حتى الآن .. أن أوضح أن فكرة تعرض اسرائيل فى أى وقت من الأوقات لخطر (القائها فى البحر) هى مجرد اسطورة، حتى بمنطق الأحداث السابقة على حرب ١٩٦٧ . ولو اتخذنا فى الاعتبار قدرة العرب على الادعاء الباطل ـ على الأقل فىدعايتهم ـ فان من المهم مقاومة اغراء تقدير نواياهم المعلنة على علاتها . ان اسرائيل تستطيع أن تتمسك بوجود الرغبة الرمزية منجانب العرب فى ازالة اليهود فى فلسطين ، والعرب انفسهم يساعدون اسرائيل فى هذا الصدد عن طريق رفع الشــعارات الدعائية التى يعلمون انهمعاجزون عن تحقيقها .. ولكن الفحص الدقيق للموقف يثبت أن اسرائيل لم تتعرض ابدا لخطر جاد على وجودها ، وان الطريق سوف يظل طويلا للوصول الى هزيمة اسرائيل وازالتها ماديا كدولة حديثة .

وفى هــذا .. كانت الاستراتيجية المعلنة للمصريين ، هى أن ينازلوا اسرائيل عن طريق استثارتها لتخطو الخطوة الأولى وتضرب، فى الوقت الذى يكونون مستعدين فيه لتلقى الضربة : ثم يكرون هم وينزلون بها ضربة قاصمة ، وكما تبين فيما بعد .. فان عيب هذه السياسة هو أن القوات المسلحة المصرية على وجه الخصوص ، لم تكن فى وضع تستطيع معه تحمل الضربة الاسرائيلية ! لقد فشلت بشكل محزن فى (الاقلال الى الحد الادنى من آثارها). وكانت هذه الآثار مدمرة الى حد أنها لم تترك للعرب فرصة ثانية .

وعلى كل ، فان هذه السياسة التى اعلنها المصريون قبل حرب ١٩٦٧ كانت سليمة من الناحية النظرية .. بشرط أن تكون هناك النية ، ثم القدرة على تنفيذها .. ولكن يبدو أن المخـــابرات الاسرائيلية التى استطاعت أن تتغلغل تماما داخل دوائر الحكومات العربية ، قد تحققت من ان القوات المصرية لم تكن حقـــا على استعداد يكفى لتغطية السياسة المعلنة فى الصحف . ويحتمل أن هذه الدراية قد تسلطت على القيادة الاسرائيلية ورجحت قـــرار الضرب ، على المخاطرة بتحمل هزيمة نفسية تسمح بتطور الموقف اكثر اذا افسح له المجال .

الى هنا ، فاننى حاولت ان أوضح أن الخطر العسكرى الفعلى على اسرائيل لم يكن وشيكا فى ١٩٦٧ ، سواء من ناحية تدمير اسرائيل أو من ناحية وقوع هجوم جوى على مدنها . لقـــد كانت اسرائيل قادرة على تخطى الفخ فى ١٩٦٧ ، لأن المصريين لم يكونوا مستعدين لنصبه ، لذلك .. فاننى أعتقد أن العامل الحاسم وراء قرار اسرائيل بدخول الحرب كان بغير شك عاملا نفسيا . أما أية اعتبارات أخرى تدعيها اسرائيل كأسباب للحرب .. فانها لم تكن تشكل اية خطورة فى الموقف .

لقد جلبت الحرب الاسرائيلية مكاسب أقليمية عظيمة . ولقـــد بينت اسرائيل فى نهاية الأمر أن لديها القوة الكافية لشل العداوة العربية المحيطة بهـــا . وانا أعتقد — لذلك — أنه من غير الممكن — وخصوصا بعد انتصار ١٩٦٧ — أن توافق اسرائيل على أى تسوية فى المنطقة تتضمن حلا وسطا لارضاء العرب. أن العرب والاسرائيليين يفكرون بمنهجين مختلفين تماما ، ولكن العرب لا يستطيعون شيئا، فقوة اسرائيل يصعب تحديها . وما دامت اسرائيل ستحتفظ بقدرتها على الرد — وهو أمر سوف تضمنه لها دائما الولايات المتحـــدة الأمريكية — وثانيا باحتفاظها بالحدود الحالية .. فانها لن تقدم أية تنازلات أساسية لحل المشكلة سياسيا .

اننى اعتقد ان الاحتمال الوحيـــد لتسوية عادلة للمشكلة بين العرب واسرائيل ، يوجد فى الفرصة التى توافرت باستيلاء اسرائيل على الضفة الغربية لنهر الأردن . فلأول مرة منذ عام ١٩٤٨ أصبحت فلسطين كيانا واحدا من جديد . وأنا شخصيا أرحب بفشل اية

تسوية قد تفصل مرة أخرى جزئى فلسطين ، لأننى لا أظن أن هذه التسوية ستدوم . ولذلك فاننى آمل الا تتم الموافقة على أية اتفاقية تركز فقط على مسألة ضمان أمن اسرائيل العسكرى أو الاعتراف بها من جانب الدول العربية . والفرصة المتاحة مرة أخرى هى أن نعالج مستقبل فلسطين كاملا ، لأننا من قبل كنا نقبل التقسيم المصطنع بين الأردن من ناحية ، واسرائيل من ناحية أخرى ، الأمر الذى جعل للمشكلة اتجاهين لا يمكن التوفيق بينهما .

والواضح أن الحل المثالى .. هو اقامة دولة ذات جنسية مزدوجة فى اسرائيل حيث تحتفظ الجماعة اليهودية بديناميكيتها دون أن يطغى عليها العرب ولا حتى الأغلبية العربية . وحيث يمكن اعادة توطين اللاجئين ومعالجة المشكلات الاقتصادية للمنطقةبمافيها مشكلة مصادر المياه كمشكلة واحدة فى مجموعها .

ويبدو أن ليس هناك من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن العناصر المؤثرة فى اسرائيل ستنتهى اذا أصبح هذا البلد جزءا من دولة فى الشرق الأوسط ، أو دولة ذات جنسية ثنائية أو حتى دولة عربية تضم أقلية يهودية . فبعد فترة جيل او جيلين ، فان التطورات العنصرية تنبىء بأن اليهود الشرقيين والعرب معا سيفوقون اليهود القادمين من أوروبا عددا .

وأنا لا أرى فى الأفق القريب صورة اتفاقية ذات قيمة يمكن بواسطتها منع حدوث أزمة أخرى . كل ما أستطيعه هو أن آمل الا تكون هناك أزمة أخرى .. ويبدو أن احتمال بقاء التوتر طوال الحقبة القادمة ، هو الثمن الباهظ الذى يتم دفعه لاحتمال أن يجد العرب فى نهاية الحقبة أن اسرائيل قد تخلت عن طابعها الصهيونى باستيعابها الاجبارى لمثل هذا العدد الكبير من السكان العرب .

جولدا مائير

تأليف: ماري سيركين

هــذا الكتــاب ..

وهــذه المؤلفــة

.. حتى لو كان التاريخ يعيد نفسه فعلا ، فلا يمكن أن يتم ذلك الى هذه الدرجة . ان هذا الكتاب يشرح بالتفصيل فى أحد فصوله، قصة المفاوضات السرية بين جولدامائير والملك عبد الله ، والتى أجراها الملك الأردنى من خلف ظهر الدول العربية لتحقيق أطماعه الخاصة على حساب العمل العربى المشترك . ومن المثير للسخرية فى هذا الكتاب .. أن بريطانيا هى التى ضغطت على ملك الأردن لكيلا يستمر فى مشروعه المشترك مع الصهيونيين،لأنها ــ باعتبارها حامية له ــ لا تريد أن « تحرقه » أمام العرب . وبعد ٢٤ عامــا تكررت الأحداث نفسها ، بين حفيــد الملك عبد الله هــذه المرة (حسين) ونائب جولدا مائير (ايجال آلون) .

ان هذا الكتاب له اهمية كبرى من هذه الزاوية . وله ايضــا اهمية اضافية من حيث أنه يكشف عن أسلوب تفكير وعمل وتطور واحدة من زعامات الصهونية الحالية فى اسرائيل . واخيرا .. فان الكتاب يشرح لنا كيف تقــدم اسرائيل زعاماتها الى الرأى العام الأمريكى .. بمنطق أمريكى .

ومؤلفة هذا الكتاب ، هى (مارى سيركين) يهودية صهيونية ، تحمل جنسية مزدوجة : أمريكية واسرائيلية . انها صديقة وزميلة قديمة لجولدا مائير ، وكانت هى المسئولة عن تشغيل أول محطة اذاعة سرية متنقلة اقامتهــا المنظمة الصهيونية فى فلسطين قبيل حرب ١٩٤٨ بفترة وجيزة ، حيث تولت الاشراف على الارســال

باللغة الانجليزية . وقد صدر الكتاب بعنوان « جولدا مائير » واعيد طبعه فى امريكا اكثر من مرة .

***

كانت الحرب على الأبواب !

أنها الحرب .. التى ستقرر ما اذا كان ممكنا قيام دولة يهودية فى فلسطين أم لا . وهى الحرب التى أصبح من المحتم أن تنشب بمجرد أن ينتهى انتداب بريطانيا على فلسطين رسميا فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ .

وفى هذه الظروف .. اتفق الزعماء الصهيونيون فى فلسطين على قرار واحد : اجراء مفاوضات مع الملك عبد الله ملك الأردن .. لفتح ثغرة فى التحـالف العربى المنتظر . قرار ثان : أن مهمـة المفاوضات الجديدة ـ والسرية جدا ـ ستقوم بها جولدا مائير ، رئيسة الادارة السياسية فى اتحاد العمال اليهود بفلسطين ، وهو الجهاز الرئيسى للمنظمة الصهيونية فى فلسطين .

كان السبيل الوحيد ، الذى لا يزال يتعين على اليهود اكتشافه ، هو ما اذا كان بالامكان اقناع « عبد الله » ملك الأردن بعدم الانضمام للمغيرين . وقد كانت هناك معاملات ودية بين الملك عبد الله واليهود فى مناسبات سابقة .. وقد أعرب الملك علنـا عن تأييده لجهـود اليهود العمرانيـة فى فلسـطين مرات عديدة ، كمـا أنه دعا الى التوصل الى تسوية بين العرب واليهود بالوسائل السلمية .

وحينما بدا فى شهر نوفمبر عام ١٩٤٧ أن الأمم المتحـدة على وشك الموافقة على قرار التقسيم ، عقدت « جولدا مائير » اجتماعا سريا مع الملك عبد الله فى منزل « بنحاس روتنبرج » الواقع على مقربة من محطة الكهرباء فى « نحاريم » بالأردن ، وكانت المحادثات بينهما ودية . لقـد أكد عبد الله انه لن يشترك فى اى هجوم يشنه العرب على اليهود . واوضح أنه اذا وافقت الأمم المتحـدة على قرار تقسيم فلسطين ، فانه سيضم الجزء العربى الى مملكته ، ووعد بتبادل مشاعر الصداقة مع اليهود .. وتحدث باستهانة عن

قوة الدول العربية المجاورة ، وذكر أن مفتى فلسطين هو العدو المشترك .. وأكد لجولدا مائير أنه سيقبل قرار التقسيم بكل سرور. وانتهت المقابلة باتفاقهما على عقد اجتماع ثان بعد أن توافق الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين .

وعلى الرغم من هذه التأكيدات .. فقد كانت هناك نقطتان أثارتا قلق « جولدا » .. لقد سألها الملك عبد الله عن موقف اليهود من اقتراح يقضى بأن تتضمن مملكته دولة يهودية ، وعندما تلقى على الفور ردا سلبيا أسقط الموضوع ، ثم أعرب بعد ذلك عن أمله فى ألا تكون الدول العربية من الصغر بحيث تسبب له الاحراج .

ولم يتم اجتماع ثان بين الزعيمين — كما كان مقررا — نظرا لاضطراب الأحوال ، ولكن الاتصال ظل قائما مع الملك عبد الله . لقد تم تبادل المعلومات بينهما حول مدينة القدس التى عارض الجانبان فكرة تدويلها . وحينما انتشرت الشائعات بأن عبد الله على وشك الانضمام للدول العربية ، بعثت اليه جولدا مائير برسالة تسأله فيها عما اذا كان اتفاقهما لا يزال سارى المفعول أم لا؟ ونقل رسول من الملك عبد الله ردا مطمئنا الى « جولدا » لقد طلب منها عبد الله أن تتذكر ثلاثة أشياء :

١ — انه رجل بدوى يحافظ على كلمته .

٢ — انه ملك .

٣ — أن الوعد الذى يقدمه لامرأة لا يمكن انتهاكه .

وعلى الرغم من هذا الثالوث الرومانسى ، فسرعان ما حنث البدوى بوعده .. وانضم عبد الله للدول العربية . وعلى الرغم من انه لم يعد باقيا سوى بصيص ضئيل من الأمل ، فقد تقرر أن تحاول جولدا مائير اجراء مقابلة ثانية مع الملك .

وقبل ان تقوم « جولدا مائير » بمحاولتها الثانية للاتصال بالملك عبد الله بفترة قصيرة ، وصل مندوب منه للبحث فيما اذا كان اليهود على استعداد للتنازل له عن جزء من المنطقة ، التى

اصبحت تابعة لهم وفقا لقرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة، لقد استند الملك الى أن مثل هـذا التنازل سيزيد من هيبته فى العالم العربى ، لأنه سيحصل على مناطق اكثر من تلك التى خصصتها الأمم المتحدة للعرب أساسا . ووقتها قيل للرسول أن هذا الاقتراح غير مقبول ، ولن يتخلى اليهود عن أى منطقة من دولتهم . وقيل له أيضا : أن الحدود التى قررتهـا الأمم المتحـدة لن تصبح سارية المفعول الا اذا استتب السلام ، ولسوف يقـاتل اليهود فى حالة وقوع حرب للحصول على اى منطقة تصل اليهـا أيديهم .

وعلى الرغم من هـذا الحديث المتبـادل .. الذى لا يبعث على التفاؤل ، فقد ساد الاعتقاد بأنه من الأفضل بذل محاولة اخيرة للحيلولة دون نشـوب عداوات مع الأردن .

وهكذا عقـد الاجتمـاع الثـانى بين « جولدا مائير » والملك عبد الله فى الأسبوع الأول من شهر مايو عام ١٩٤٨ .

لقد رفض عبد الله فى هذه المرة .. أن يذهب الى « نحاريم » فقد كان هناك خطر من أن يذهب الى الحدود اليهودية ، اذ كان من الخطورة البالغة بالنسبة له أن يقترب من الحدود اليهودية ، لأن أنبـاء الاجتماع السـابق تسربت ، لهـذا كان لابد من اتخاذ اجراءات أمن غير عـادية .

واقترح الملك أن ترتدى « جـولدا » ثيـاب امرأة عربيـة ، وتذهب الى عمان . وهكذا طارت « جولدا » من القـدس الى تل أبيب لعقد اجتماع مع بن جوريون تقرر خلاله الاتصـال بالملك عبد الله .. ولم يكن يعرف بخبر هذا الاتصال سوى ثلاثة أشخاص فى البلاد . واستقر الرأى على أن يصحب « جولدا » رفيق واحد ، هو « عزرا دائين » ، المستشرق اليهودى الـذى ولـد فى يافا .. والخبير فى الشئون العربية .. لكى يقوم بدور المترجم لهـا .

لقد تم الاتفـاق على الاجتمـاع مع عبد الله يوم ١٠ مايو ، وغادرت « جولدا » و « دائين » تل أبيب قاصدين حيفا ، حيث

حصلت جولدا على ثياب امراة عربيـــة وخمـــار وغير ذلك من المستلزمات .. وتدربت على التحرك بصورة مقنعة فى هذه الثياب العربية الفضفاضة ، واتجها من حيفا الى نحاريم ، ولم تكن جولدا قد ارتدت الثياب العربية بعد ، وغيرا السيارة التى كانا يستقلانها عدة مرات حتى يظل مقدمهما فى طى الكتمان .. !

وكان الملك قد أرسل سيارة الى « نحاريم » لنقل المبعـــوثين اليهوديين الى عمان . وحينما حل المساء .. ارتدت جولدا ثيابها العربية وخمـــارها وبدأت الرحلة الى عمان . وكانت المجموعة المســـافرة تأمل فى تجنب الفيلق العربى (الجيش الاردنى) الذى كان حراســـه مرابطين على الحـــدود بالفعل . ولكن اذا حدث وأوقفهم الحراس فان «دائين» ــ مرافق جولدا ــ لم يكن ليجد صعوبة فى المرور لامكانه التصرف كرجل عربى ، نظرا لتحكمه فى اللغة العربية .. ولمعرفته الوثيقة بعادات العرب .. ومع هذا فقد كانت « جولدا » أطول وأثقل وزنا من المراة العربية العادية .

وعلى الرغم من أنه كان بوسعهما الانكماش فى مكانهمـــا فى خضوع وهدوء أثناء الظلام .. الا أنه كان يتعين ــ اذا ما أوقفهما الحراس ــ أن يحرصا على عدم توجيه أية أسئلة اليهما ، كما أنهما وضعا ثقتهما فى تقاليد العرب التى كانت تحـــرم لمس امرأة عـــربية .

وفى اثناء الرحلة التى استغرقت عدة ســـاعات .. توقفت السيارة عشر مرات للتحقق من شخصية ركابها بدون أن تقع أية حادثة . ولم يذهب الســائق بجولدا الى « قصر الملك » ولـــكنه اوصلها الى منزل احد اصدقاء عبد الله الأغنياء الذى كان يثق فيه تماما . ووصل الملك قبل مضى وقت طويل . وبدا عليه الود .. ولكنه كان مكتئبا وعصبيا .

لقد اعادت جولدا على اســـماع الملك خـــلال الســاعة التى استغرقها الاجتماع ، الوعد الذى قطعه على نفسه فىشهر نوفمبر . ولم يبذل الملك عبد الله أية محاولة لانكار تعهده ، ولكنه أضاف أن

الموقف قد تغير . وقال انه كان يعتقد حينذاك أنه حر التصرف .. ولكن الظروف لم تسمح له بمثل هذه الحرية .

كانت لهجة الملك تدل على أنه يشير الى التوجيهات البريطانية . ومع هذا كان الأمل لا يزال يراوده ، بأنه يمكن تجنب الحرب رغم تأخر الوقت .. بشرط الا يعلن اليهود انشاءدولتهم، وان تتوقف الهجرة الى فلسطين لعدة سنوات قادمة . واوضح الملك .. أنه سوف يستولى على فلسطين بدون تقسيم ، ويضمها الى الاردن بعد عام واحد بحيث يسمح للطائفة اليهودية أن يكون لها ممثلون فى برلمان بلاده .

ووعد الملك بأن يعامل اليهود معاملة طيبة ، تتمشى مع آرائه الليبرالية ، وانهى حديثه بالتصريح بأنه يرغب بحق فى اقرار السلام ويأسف للدمار الحتمى الذى ستتعرض له منجزات اليهود العظيمة فى مجال الزراعة والصناعة اذا ما اندلع لهيب الحرب ، واعرب عن فهمه للسبب الذى يحدوهم للعجلة فى انشاء دولتهم .

وأجابته « جولدا » بدماثة .. بأنه من العسير وصف شعب ظل ينتظر مدة الفى عام بالعجلة . وربما كان اليهود فى غاية الصبر . وأشارت « جولدا » الى أن علاقات اليهود بجلالته كانت ودية دائما ، وانها تدعمت بمعارضتهما للمفتى .. عدوهما المشترك . وقالت جولدا ان اليهود حققوا انتصارات خلال الخمسة اشهر الماضية ، بينما قوة المفتى فى اضمحلال ، كما أن اليهود صدوا المغيرين على أعقابهم . وصرحت « جولدا » بأنه من الممكن التوصل الى تفاهم اذا ما تمسك عبد الله باقتراحه الأصلى .. الذى يقضى بضم المنطقة المخصصة للعرب ، حيث أصبح اليهود اكثر قوة من بضعة أشهر ولن يترددوا فى القتال اذا فرضت عليهم الحرب فى أى مكان وبأقصى قدراتهم .

وأجاب الملك عبد الله على هذا القول بانه يدرك أن اليهود سيضطرون الى رد أى هجوم يتعرضون له ، ولاشك فى انه يريد حقا وباخلاص تنفيذ اقتراحه الاصلى ، ولكن عدة أشياء حدثت منذ

ذلك الحين ، فقد الهبت حادثة « دير ياسين » مشـاعر العرب ، وبالاضافة الى ذلك .. « فاننى كنت بمفردى حينذاك . ولـكنى الآن واحد من خمسة . ليس أمامى خيار آخر ولا يمكن أن أتصرف على نحو مختلف » .

وتوسل الملك الى « جولدا » مرة ثانية .. بأن تدعو حكومتهاالى اعادة النظر فى الأمر . وأعلن انه اذا وصله رد مقبول فى ١٥ مايو فانه سـوف يجرى مشاورات مع المعتدلين العرب للمحافظة على السـلام .

وعندما طالبته « جولدا » و « دائين » ببراعة .. أن يتذكر أن اليهود هم أصدقاؤه الوحيدون ، أومأ برأسه وأجاب قائلا : « اننى أعلم ذلك جيدا ، وليس لدى شك فى معرفتى بكم وفى ايمـانى بنواياكم الطيبة ، وأعتقد بكل جوارحى أن الله أعادكم .. أنا أعلم كل هذا وأؤمن به باخلاص ، ولكن الظروف صعبة ولا يجرؤ المرء على اتخاذ خطوات متهورة . ولذلك أناشـدكم مرة أخـرى التزام الصـبر » .

وأجابت « جولدا » على حديثه هذا بقولها : « ليست لدينا أية رغبة فى تضليل جلالتك .. ونحن نرغب فى أن نوضح لك تماما انه لا يمكننا حتى مجرد دراسة اقتراحك . ولن يؤيد هذه الخطة أى من مؤسساتنا أو حتى عشرة من اليهود الذين يتمتعون بأى نفوذ، وبوسعنا أن نرد عليك فى الحال .. بأن جلالتك اذا أدرت ظهرك لاتفاقنا الأصلى وأردت الحرب بديلا .. فستكون هناك حرب.وعلى الرغم من الصعوبات التى تعترض طريقنا ، الا أننا نؤمن بانتصارنا وربما تقابلنا ثانية بعد الحرب ، حينما تكون هناك دولة يهودية » .

وتحول عبد الله الى « دائين » مرافق « جولدا » .. وتحدث معه بلهجة أبوية ، وطلب منه ــ بوصفهمستشرقا ــ أن يؤيدموقفه، وقدم اليه « دائين » أيضا بعض النصح ، وذكر عبد الله بأنه ليس لديه أصدقاء حقيقيون فى العالم العربى ، وبأنه يعتمد على دبابات الفيلق العربى مثلما كان الفرنسيون يعتمدون على خـط ماجينو، ولكن اليهود سيحطمون هذه الدبابات .

وقد جرؤ « دائين » على أن يقترح على الملك بأنه ربما يكون الوقت قد حان لانهاء العادة القديمة الجميلة التى تقضى بالسماح لرعاياه بتقبيل يده أو أطراف ثيابه ، وذلك لأن سكان المدن يختلفون عن رجال القبائل من البدو ، ويجب على الملك أن يكون أكثر يقظة فيما يختص بحماية نفسه من الاغتيال .

وانتهت المقابلة والملك لا يكف عن الاعراب عن أسفه للدماء التى ستراق ، وقد تركت المقابلة انطباعا لدى « جولدا » و « دائين » بأن عبد الله لم يكن سعيدا أو يشعر بالثقة ، وبأنه لم يكن يريد القتال ، ولكنه كان متورطا للغاية فى روابط مع العرب والبريطانيين بحيث أصبح من العسير عليه تخليص نفسه .

وبعد أن غادر الملك المنزل أعد الصديق العربى الغداء ، وصحبت زوجته « جولدا » لمشاهدة مكتبتها . ثم آن الأوان لبدء رحلة العودة المحفوفة بالاخطار .

وفى طريق عودتهما كان بمقدورهما رؤية معسكر « المفرق » حيث كانت القوات العراقية محتشدة فيه بالفعل . وقد أثارت كثرة عدد نقط المراقبة ، التى كان عليهما اجتيازها ، خوف السائق العربى الذى قرر أنه من الخطورة بمكان .. قيادة العربة الى « نحاريم » ، وقد ترك ركابه فى التلال على مبعدة ميلين من الحدود . وكانت الساعة الثالثة صباحا ، كان الوصول الى « نحاريم » يستغرق نصف ساعة بشرط الا يضلا طريقهما ولم تكن « جولدا » و « دائين » مسلحين ، بل ان جولدا اعترفت بعد ذلك بأن الخوف قد ساورها ، ولم يكن هناك أمل يرجى فى بقائهما على قيد الحياة اذا اعترض الحراس طريقهما ، ذلك لأنه ليس من عادة السيدات العربيات الفاضلات السير الهوينا عبر التلال فى منتصف الليل ! ومن حسن الحظ .. أن قابلهما أحد جنود « الهاجاناه » من نحاريم كان يبحث عنهما . وكان الظلام دامسا بحيث تعذر على جولدا التعرف عليه ، ولكنه زارها بعد ذلك بعام وقدم لها نفسه على اعتبار أنه الرجل الذى قادهما عبر التلال .

* * *

ان جولدا مائير ، التى قامت بهذا الـــدور الاســـاسى ، قبل ســـنوات طويلة من وصولها الى منصب رئيسة وزراء اسرائيل ــ كانت تقوم فى الواقع بمهمة سرية لا يعرفها الامريكيون حتى الان.

ولا يمكن للامريكيين أن يتخلوا عن اهتمامهم الشديد بمســز مائير كواحدة منهم ، اذ أنها تمثل فى نظرهم لونا جـــددا وجذابـــا من قصص النجاح الامريكية . فقد نشـــأت مسز مائير فى ولاية « ميلووكى » ، وعملت كأمينة مكتبة ومدرسة . وللروس أيضـــا ذكرياتهم ، اذ تمكنت هذه المراة .. التى تكره وضع الأصباغ على وجهها أو طلاء شفتيها كأى امراة سوفيتية من الطراز القديم وهى تمشط شعرها من منتصف رأسها وتلفه خلف عنقها ــ تمكنت من اثارة اهتمامهم عام ١٩٤٨ حينما ذهبت الى موسكو كأول وزيـــر مفوض لاسرائيل فى الاتحاد السوفيتى .

ان « جولدامائير » هى الوحيدة بين الزعماءالاسرائيليين البارزين من جيل الرواد التى جاءت من أمريكا ، بينما هى ولدت أصلا فى مدينة «كييف» السوفييتية الواقعة جنوب غرب روسيا فى ٣ مايو سنة ١٨٩٨ . وكان معظم يهود روسيا يعيشون داخل نطاق«مناطق الاستيطان » ، وهى الاحياء الروسية التى كان مسموحا لليهـــود بالعيش فيها فى عهد القياصرة . لقد كان أبوها ــ واسمه«موشى مابوفيتش » يعمل نجارا وصانعا للأثاث الفاخر ، ولم يبق على قيد الحياة من أبنائه الثمانية سوى ثلاثة هم : « شـــانا » كبراهم ، و « جولدا » وشقيقة تصغرهما تدعى « زيبورا » .

وقد ترك « موشى » روسيا بمفرده فى عام ١٩٠٣ ، وهو يزمع أن يرسل لزوجته وأطفاله ــ حينما يستتب له الامر ــ كى يلحقوا به . وقد حدث هذا أخيرا فى سنة ١٩٠٦ ، حينما وصلت من الأب التذاكر اللازمة لكى يلحقوا به فى الولايات المتحدة ، التى قرر أخيرا أن يستقر فيها ، بعد أن ترك « نيويـــورك » واستقر فى مـــدينة « ميلووكى » الامريكية .

وعندما انتهت « جولدا » من دراستها الابتدائيـــة ، وارادت الالتحاق بالمدرسة الثانوية لكى تعمل مدرسة بعد ذلك ، رفضت

أمها .. فقررت « جولدا » الهرب . وفعلا هربت سرا وسافرت لتقيم مع أختها « شانا » التى تقيم مع زوجها فى مدينة « دنفر » الامريكية .. حيث التحقت هناك بالمدرسة الثانوية . وبعد هربها بمدة بسيطة ، وصلها خطاب من صديقة لها قالت فيه « انك تسأليننى عن رأى من يعرفونك فى ميلووكى فى حادثة هربك . والحقيقة التى لا أريد بها أن تؤذى مشاعرك هى أن الجميع يعتقدون أنك فررت مع شاب ايطالى » .

وحينما أوشك العام الأول « لجولدا » فى (دنفر) على الانتهاء ، كانت جولدا قد ضاقت ذرعا بسبب قيام شقيقتها بفرض وصايتها عليها . وفى احدى الامسيات ، وبعد شجار حاد بين الشقيقتين، قالت جولدا « حسنا سوف أغادر المنزل » .. وانصرفت حيث استأجرت غرفة مع احدى العائلات اليهودية فى دنفر ، بينما تركت الدراسة لتعمل . وأخيرا عادت الى « ميلووكى » لاستئناف دراستها هناك بعد أن تأجلت لفترة طويلة ، بحيث تخرجت بعد عامين فى المدرسة الثانوية والتحقت بدار المعلمين الابتدائية .

وحتى ذلك الحين .. لم تكن فكرة الصهيونية قد شدت انتباه جولدا ، بالفعل . ولكنها بعد قليل بدأت تشترك فى الحملة التى بدأت لاثارة يهود أمريكا وحملهم على التبرع بأموال كثيرة لليهود الذين سلبوا ما يمتلكون فى الدول الواقعة فيما وراء البحار .

وفى سنة ١٩١٥ انضمت جولدا رسميا الى « بوعالى صهيون » أى عمال صهيون .. ذلك الحزب الصغير الواسع النفوذ الذى يضم فى معظمه العمال الصهيونيين الذين يتحدثون باللغة « البديشية » ومن بين سماتها المميزة .. أنها لم تنضم تنظيميا الى هذا الحزب الا بعد أن التزمت بعضويته بصفة شخصية . وقد اختارت الانضمام الى العمال الصهيونيين بدلا من الانضمام الى منظمة « ماداسا ٦ » التى أنشأتها سيدة أمريكية أكبر منها سنا تدعى « هنرييتا زولد » لأن برنامج حزب عمال صهيون كان يدعو الى انشاء كومنولث هادف فى فلسطين .

وفى هذا الوقت .. وصلها خطاب من « موريس بايرسون » وهو أحد المهاجرين الروس الشبان ، الذى تعرفت به جولدا فى دنفر واحبته هناك . ان انضمام جولدا الى حزب عمال صهيون أدى الى تعقيد حياتها الشخصية فى هذا المجال ، نظرا لأن موريس الذى ارتبطت به لم يكن صهيونيا . وقد أوضح لها ذلك فى الخطاب الذى ارسله اليها من « دنفر » حينما كتب يقول « لست أعرف ما اذا كنت سعيدا حقا او انى أشعر بالاسى لانضمامك للحزب الصهيونى . ولأنك تبدين وطنية متحمسة . .ان فكرة خلق دولة يهودية فى فلسطين أو فى منطقة أخرى تبدو سخيفة فى نظرى . وقد وصلتنى منذبضعة أيام دعوةلحضور أحد الاجتماعات المخصصة لهذا الغرض ، ولكنى لم أحضر لأنى لا أبالى بوجه خاص بما اذا كان اليهود سيتعرضون للمتاعب فى روسيا أو فى الأرض المقدسة ».

وحينما تبعها موريس بعد قليل الى ميلووكى ، اوضحت له جولدا انها لن تتزوجه الا اذا صحبها الى فلسطين . لقد قررت جولدا الذهاب الى فلسطين لكى تصبح عضوا فى الكيبوتز — أو المستعمرة التعاونية — التى كانت تقوم باستصلاح مستنقعات « عيمك » أو وادى « أزور الدن » . وكانت قد اتخذت هذا القرار قبل صدور وعد بلفور بعامين . وفى وقت كانت فكرة انشاء وطن يهودى فى منطقة فلسطين القاحلة التى كان الأتراك يسيطرون عليها ، تبدو خيالية تماما .

وكانت المناقشة تدور وقتئذ حول ما اذا كان يتعين أن يتعلم اليهود اللغة « العبرية » أو اللغة « البديشية » . لقد استقرالرأى فى فلسطين منذ البداية على اللغة العبرية ، ومع هذا .. كان الصهيونيون العمال ينادون فى الولايات المتحدة بتعلم اللغةالبديشية على أساس أنها اللغة الفعلية للطبقة اليهودية العاملة . وعليه ، فانها أفضل من اللغة المقدسة الميتة ، وهكذا ظلت لغة « جولدا » البديشية أكثر غزارة وطواعية فى الاستخدام من اللغة العبرية التى تعلمتها بعد آن فى فلسطين .

وفى هذا الوقت .. قابلت « جولدا » الرجل الذى كان من المفروض أن يمارس تأثيرا عميقا فى تطورها السياسى ، والذى سوف

تعمل معه كشريك وثيق الصلة فى الكفاح المشترك . وقد وصل « بن جوريون » الذى كان يبلغ من العمر ثلاثين عاما حينذاك الى أمريكا فى عام ١٩١٥ برفقة صديقه « اسحق بن زفى » بعد أن أبعدتهما الحكومة التركية عن فلسطين بتهمة تدبير مؤامرة صهيونية . ولم يحظ بن جوريون بقدر كبير من الاهتمام خلال رحلته الأولى لأمريكا .بل انه حتى حركة الصهيونيين الامريكيين وجدت فى هذا اليهودى القادم من فلسطين ، وفى آرائه المتطرفة التى تنادى « بالعودة الى الوطن » سخفا غريبا وغير مهذب . وكان تلاميذه الوحيدون هم أعضاء حزب عمال صهيون الذين ينتمون فى معظمهم الى الطبقة العاملة .

وفى هذه الفترة .. تركت « جولدا » دار المعلمين الابتدائية بملووكى وعملت كأمينة مكتبة وبدأت تكرس وقتها كله ، خارج عملها ، للحركة الصهيونية العمالية ، وكان المرتب الذى تحصل عليه من الحزب أقل كثيرا حتى من المرتب المتواضع لمدرسة ولأمينة مكتبة . ولكنها تمكنت من أن تدبر شئون معيشتها بالخمسة عشر دولارا التى كانت تحصل عليها أسبوعيا من الحزب.

وكانت هناك مشكلة أخرى يتعين على جولدا حسمها فى الوقت نفسه تقريبا ، فاذا كان «موريس» لا يزال مصرا على رفضه الذهاب الى فلسطين بعد الحرب،فلابد من قطع علاقتهما . وعلى الرغم من عدم اقتناع « موريس » .. الا أنه استسلم لرغبة جولدا ، ووافق على السفر الى فلسطين . ولم يكن هناك أى مبرر آخر للتسويف فى عقد الزواج الذى طالما الح لاتمامه . وتزوج الاثنان فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٧ .

وقبل هذا التاريخ بأسابيع قليلة .. كان قد صدر وعد بلفور . وقد أدى صدور وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ الى تحويل الصهيونية من مجرد حلم غامض الى واقع سياسى . وكانت بريطانيا العظمى قد وافقت فى النهاية — قبل صدور الوعد بعدة أشهر — على تشكيل وحدة عسكرية يهودية خاصة — هى الفيلق اليهودى — للقتال من أجل تحرير فلسطين مع الكتائب الملكية البريطانية . وبعد دخول أمريكا الحرب سمحت الحكومة الامريكية بالتجنيد فى

الفيلق اليهودى ، الذى نطوع فيه عدد كبير من الصهيونيين العماليين . وعندما شارفت الحرب على الانتهاء ، قررت جولدا تكريس نفسها كلية لمعالجة مشكلة دخول فلسطين . وهكذا ابحرت هى وأختها الى فلسطين فى ٢٣ مايو سنة ١٩٢١ ــ بالباخرة حتى الاسكندرية ، وبالقطار من الاسكندرية حتى تل أبيب .

* * *

فى السنوات الأولى لجولدا فى فلسطين .. كان لابد عليها أن تعمل وفقا للبرنامج الكامل للصهيونى العمالى ، وهو برنامج يتطلب انجازه الانضمام الى عضوية مستعمرة تعاونية زراعية، وبمعنى آخر الى عضوية الكيبوتز ، وكان الصندوق القومى اليهودى قد قام فى ١٩٢١ بشراء أجزاء كبيرة من الأرض فى وادى عزريل المعروف باسم « عيميك » ، وكان الاقليم مليئا بالمستنقعات وتنتشر فيه حمى الملاريا وهى البول الاسود ، وكان يتعين تجفيف هذه الأراضى . وهكذا اختارت جولدا أن تقيم فى كيبوتز « بيرحافيا »

وحينما وصلت جولدا الى بيرحافيا مع زوجها موريس ، كانت واحدة من ثمانى نساء بين أفراد الكيبوتز البالغ عددهم اثنين وعشرين رجلا . وسرعان ما برزت جولدا فى الكيبوتز . وفى غضون ستة أشهر . أرسلت لتتلقى دراسة خاصة فى علم تربية الدجاج . وبعد عودتها أصبح البيض الذى تضعه الدواجن تحت اشراف جولدا مخصصا للبيع ، واستثمار ثمنه فى تحسين حال الكيبوتز .

فى خلال سنة ، أصبحت « جولدا » مندوبة الكيبوتز فى مجلس الهستدروت الذى شكل حديثا ، وهو نقابة العمال اليهود فى فلسطين . ولم يكن الهستدروت ــ الاتحاد العام للعمال اليهود فى فلسطين ــ نقابة عمالية عادية تهتم أساسا بالأحوال المعيشية لأعضائها . وقبل اقامة الدولة فى فلسطين ، كان الهستدروت بمثابة كومنولث عمالى . ومنذ البداية .. والهستدروت يعتبر نفسه وكالة عملية للتوطين تنحصر مهمته فى جذب المهاجرين الطلائعيين ومساعدتهم على استيطان فلسطين . ولم يكن هناك أى غرض ضرورى لتنمية البلاد يخرج عن اختصاصه . وحينما كان أصحاب المشروعات الخاصة يخشون من الاقدام على تنفيذ مشروعات تنطوى على مخاطرة أو تعتبر غير مثمرة ، كان الهستدروت يقدم

راس المال اللازم واليد العاملة المطلوبة من خلال مؤسساته الائتمانية وشركات البناء التابعة له . وكانت شركة البناء التعاونية وتسمى « سوليل بونيه » تقوم بشق الطرق فى الصحراء ، وهى عملية لم يكن أى مقاول خاص على استعداد للقيام بها ، ولم يكن أعضاء الهستدروت وأسرهم لا يمثلون فقط أكثر من ٣٠ الى ٤٠ فى المائة من نسبة السكان اليهود ، ولكنهم كانوا أيضا انشط العناصر فى البلاد .

هكذا اصبح الهستدروت بمثابة أداة لتحقيق حلم الصهيونية فى فلسطين . وكان معنى عضوية المرء فى اللجنة التنفيذيةللهستدروت فى عام ١٩٣٤ أنه فى مقدمة الكفاح الصهيونى اقتصاديا كان أو سياسيا ، خلال الأعوام المصيرية التالية .

ان هذا هو ما حدث فعلا بالنسبة لجولدا ، التى بدأت عملها فى الهستدروت بتنظيم الادارة السياحية التابعة له ومهمتها الترحيب بالزوار المرموقين ، الى أن أنتخبت لعضوية سكرتيرية اللجنة التنفيذية للهستدروت .. وبحلول عام ١٩٣٦ أصبحت مسئولة عن كافة برامج المعونة المتبادلة للهستدروت ، كما أصبحت رئيسة مجلس ادارة « كربات حوليم » — أو صندوق العمال المرضى . وبعد فترة قصيرة .. أصبحت مديرة للادارة السياسية فى الهستدروت وتم ارسالها فى عام ١٩٣٧ الى الولايات المتحدةللدعوة الى جميع التبرعات لبناء ميناء خاص لليهود فى تل أبيب .

سافرت جولدا الى أمريكا وسط موجة من الاضطرابات الدامية اندلعت فى فلسطين سنة ١٩٣٦ بين اليهود والعرب . وعادت لتصبح وسط المناقشات المتعددة بين اليهود الصهيونيين انفسهم. لقد أدى الكتاب الابيض الذى أصدرته بريطانيا سنة ١٩٣٩ الى وضع حد للآمال التى كانت تتطلع نحو انشاء وطن قومى لليهود . لقد أسفرت المناقشات بين الصهيونية عن اتجاهين أساسيين ، الأول يتزعمه « حاييم وايزمان » السياسى الصهيونى الذى لا يريد اتباع العنف ضد بريطانيا ، والثانى يتزعمه « بن جوريون » . ولقد قال بن جوريون : « ينبغى أن يتصرف اليهود كما لو كنا دولة فى فلسطين الى أن يتم انشاء الدولة اليهودية » . لقد انضمت

جولدا الى بن جوريون . وحينما نشبت الحرب العالمية الثانية كان الشعار الذى رفعه بن جوريون وآمنت هى به هو « سوف نحارب الكتاب الأبيض كما لو كانت الحرب غير قائمة ، وسوف نحارب العدو المشترك (العرب) كما لو كان الكتاب الأبيض لا وجود له » .

هكذا ظلت السياسة الصهيونية فى فلسطين ابان الحرب . وحينما انتهت الحرب العالمية الثانية .. بدأ الصهيونيون يركزون على خلق المتاعب لبريطانيا فى حدود هدف نهائى ، هو ارغامها على الانسحاب من فلسطين باعتبارها سلطة الانتداب . وفى ١٤ فبراير سنة ١٩٤٧ أعلنت بريطانيا أنها ستعرض المشكلة برمتها على الأمم المتحدة . وعندما أثير مشروع تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب انقسم اليهود الى تيارين ، تيار مؤيد لمشروع التقسيم وتيار معارض ، وخلال فترة قصيرة أصبح لابد من أن ينتصر الجناح المتطرف . وهنا أصبح على الزعماء السياسيين والعسكريين للطائفة اليهودية أن يقوموا بتشكيل جهاز لمواجهة أعباء الحرب الحديثة . وقام عدد كبير من المبعوثين بالسفر الى نيويورك لمحاولة جمع الأموال المطلوبة من اليهود الامريكيين . وعاد المسئول عن خزانة الوكالة اليهودية من أمريكا يجر أذيال الخيبة ، وأوضح للزعماء الصهيونيين أنه من الأمور غير الواقعية أن يتوقع يهود فلسطين أن يدفع اليهود الامريكيون مبلغا يتراوح بين خمسة وسبعة ملايين دولار .

لقد كان هذا التقرير مؤسفا ، فاذا تعذر شراء الأسلحة والحصول على الأموال للحفاظ على قوة الجيش ، اذن فقد ضاعت الحرب وضاعت الدولة اليهودية . لقد استقر الامر أخيرا على أن تسافر « جولدا مائير » الى أمريكا حيث بدأت تركز أحاديثها لليهود هناك قائلة : « ينبغى أن يطلب من يهود العالم أن ينظروا الينا بصفتنا نمثل خط الجبهة ، وأن يفعلوا فى سبيلنا ما فعلته الولايات المتحدة فى سبيل انجلترا حينما كانت الأخيرة تمثل خط الجبهة فى الحرب العالمية .. ان الملايين التى سنحصل عليها فى غضون ثلاثة أو أربعة أشهر لن تكون لها أهمية ، فالمشكلة تنحصر فيما نستطيع الحصول عليه فورا . وحينما أقول أيها

الاصدقاء فورا ، فليس معنى هذا فى مدى شهر و اثنين من الآن .. وليس بوسعكم الا أن تقرروا شـــيئا واحــدا وهو ما اذا كنا سننتصر فى هذا القتال أو أن المفتى هو الذى سيخرج منتصرا ».

لقد طلبت « جولدا » من يهود أمريكا مبلغا يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ مليون دولار فورا ، وهو مبلغ يبلغ خمسة أضعاف المبلــغ الاجمالى الذى حدد من قبل .

من باريس .. بعث اليها أحد مبعوثى الهاجاناه بأن بوســـعه شراء دبابات اذا ما حصل على عشرة ملايين دولار فورا . وابلغته جولدا تليفونيا : « أشتر » . وارسل لها مبعوث آخر فى أوربا — كان يحاول شراء ذخيرة — يقول انه سيعود الى فلسطين،وكان يحتاج أيضا الى عشرة ملايين دولار ، ولم تكن هناك فائدة من انتظار حدوث المستحيل . وأبلغته جولدا برقيا : « ابق فى مكانك » ، ووصله المبلغ المطلوب .

استطاعت جولدا أن تجمع خلال مدة الشـــهرين ونصف الشهر التى قضتها فى أمريكا مبلغ ٥٠.. مليـــون دولار . وحينما عـــادت الى فلسطين قال لها بن جوريون : « حينما يدون التاريخ فى يوم من الأيام .. سيقال ان امرأة يهودية استطاعت الحصـــول على الأموال التى جعلت قيام الدولة أمرا ممكنا »(*)

الجزء الثالث

وأخيـــرًا ..
كلمات ليست أخيـــرة

بقلم : محمود عوض

كن اخى .. والا سأقتلك .

هكذا يقول « مناحم بيجن » زعيم حزب حيروت الاسرائيلى فى كتاب له بعنوان « الثورة » .

اما بن جوريون — زعيم حزب رافى — فيقول فى كتاب « اسرائيل : سنوات التحدى » : ان اسرائيل لا يمكن أن تعيش الا بالقوة والسلاح .

وفى رواية « الخروج » التى الفها الكاتب الصهيونى « ليون اوريس » .. يقول أحد أبطال القصة : « انه لشىء بشع حقا .. ان أطفالنا يعبدون المحاربين . اننا نبنى وجودنا على السلاح » .

وفى مقال نشرته صحيفة « نير » الاسرائيلية ، قال الكاتب ناتان هوفش : « ان رجال الدين اليهود قد أداروا ظهورهم لكل تحذيرات الأنبياء والحكماء ضد القوة .. واصبحوا أكثر الناس حماسا واعجابا بالجيش وبالروح العسكرية ، وبالأساليب المسلحة العنيفة . انهم بهذا يعطون للجيش الاسرائيلى شهادة الاثبات بأنه ينفذ تعاليم الدين اليهودى » .

و ...

كانت هذه اجابات مختلفة ، تقدمها السياسة والأدب والدين فى اسرائيل لسؤال واحد : من هو ألاله الجديد فى اسرائيل ؟ .

ان اسرائيل تحاول خلق جيل جديد يسميه بن جوريون « الصخرة » ويفتخر بن جوريون بأن هذا الجيل قد أدى الى أن « اصبح الشعب اليهودى هو تجمع المحاربين » .

ولكى يصبح الجيل اليهودى الجديد هو « الصخرة » .. ولكى تصبح اسرائيل هى « تجمع المحاربين » .. كان لابد من وجـود غذاء يومى واحد للجيل الجديد فى اسرائيل . هذا الغذاء هو الروح العسكرية العنصرية . هذه الروح هى الشرط الأول .. اللازم لتحقيق الهدف الصهيونى الأساسى : من النيل الى الفرات .

ومرة ثالثة .. كان لابـد ان ينعـكس كل ذلك على طريقـة تنظيم المجتمع الاسرائيلى ، ثم على التنظيم العسكرى فى اسرائيل.

لقد رأينا كيف يعمل هذا التنظيم فى الصفحات السابقة ، ورأينا النتيجة التى حققها خـلال حرب ١٩٦٧ فى الـكتاب الاسرائيلى الأول السابق لهذه الصفحات ــ ولكن تبقى بعد ذلك التحفظـات التى أود أن أسجلها مقدما قبل أن أناقش التفـكير العسـكرى الاسرائيلى :

أولا ــ بصرف النظر عن التفاصيل العسكرية الفنيـة ، التى لا تدخل فى مهمتنا وتهم العسكريين أساسا ، فان الذى يهمنـا هنا أولا بعد أن قرأنا الكتب السابقة ... هو أن نتعرف على مدى الجدية التى يعطيها العدو لاهدافه العسكرية التوسعية فى المنطقة العربية . جدية لا يعتمد فيها على اعتبارات عسكرية مؤقتة .. بل تعتمـد على تأصـيل وتعميق الـروح العسكرية حتى بـين الأطفـال .

ثانيا ــ انه من المسـائل الملفتة للنظر .. ان جميع المؤلفـين الغربيين الذين كتبوا عن التكوين العسكرى الاسرائيلى .. يقررون انه موجه أساسا للحرب الهجومية بالدرجة الأولى . وهذا يؤكد الطبيعة العدوانية للسياسة العسكرية الاسرائيلية .. ثم يؤكد أن الحسابات العسكرية الاسرائيلية تختل اختلالا شديدا ــ بل قد تنقلب رأسا على عقب ــ لو أنها خاضت حربا دفـاعية ، أو حربا طويلة زمنيا .

ثالثا ــ أيضا مما يلفت النظر .. ان العـدو الاسرائيلى حين يحاربنا .. فهو يعبىء كل موارده لخدمة المجهود الحربى .

رابعا ــ أنه مع كل ذلك .. وبالرغم من هذه التعبئة العسكرية المطلقة ، فان اسرائيل لم تقم بمواجهة الجيش المصرى فى أىحرب واسعة النطاق ، بدون حسابات سابقة تضمن تحركا دوليا لمصلحتها . فقد أصبح معروفا مثلا ان بن « جوريون » رفض فى سنة ١٩٥٦ أن يتحرك الا بعد ان حصل على ضمان من بريطانيا وفرنسا بأنهما ستكفلان له مظلة جوية وحزاما بحريا ــ وفوق هذا كله ــ تدميرا كاملا لجميع المطارات المصرية فى الساعات الأولى للقتال . وبعد أن حصل على هذا الضمان ــ بعده فقط ــ وقع الاتفاقية السرية مع ممثلى بريطانيا وفرنسا .

ثم ــ بعد هذه التحفظات السريعة ــ نعود الى العسكرية الاسرائيلية :

ان التفكير العسكرى الاسرائيلى يقوم أساسا ــ فى جانبه المدنى ــ على خلق روح عنصرية لدى الطفل الاسرائيلى منذ سن مبكرة . وهى روح عسكرية عنصرية يتم تنميتها لكى تخدم الأهداف التوسعية الواردة دائما فى جدول الاعمال الاسرائيلى .

ومادام التوسع الاسرائيلى الى ما تسميه اسرائيل (الأرض التاريخية) .. هو مسألة محل اتفاق بين مختلف الاجنحة الحزبية هناك .. فان تنمية الروح العسكرية العدوانية تصبح ضرورة مبدئية لتحقيق هذا الغرض .

وجميع الذين كتبوا عن التنظيم العسكرى الاسرائيلى ــ بما فيهم الاسرائيليون أنفسهم ــ متفقون على ان التدريب العسكرى فىاسرائيل يعتمد أساسا على الهجوم ، والهجوم هنا صيغة اسرائيلية للعدوان والعدوان جوهر التفكير العسكرى فىاسرائيل. ولقد كان قيام اسرائيل بالمبادرة بالهجوم ــ وهى دائما تبادر ــ واحدا من الأسباب الرئيسية التى كفلت عنصر المفاجأة فى حرب ١٩٦٧ .

ولكن المفاجأة لم تكن هى السبب الوحيد لانتصار اسرائيل وهزيمتنا ، كما ان الهزيمة كلها لا يمكن تفسيرها بناء على ميزات

موجودة فى الجانب الاسرائيلى .. ومخصومة من الجانب العربى بالعكس . ربما كانت الاسباب الرئيسية للهزيمة هى قدرة اسرائيل على استغلال أخطاء وقعنا فيها نحن .. ولهذا مهدنا بها الطريق أمام عبقرية وهمية أضفاها العقل الاسرائيلى على نفسه .

ان معرفتنا بعدونا تقتضى منا اثارة عدة اسئلة فى وقت واحد. مثلا : هل كان انتصارنا مستحيلا ؟ هل كانت هزيمتنا حتمية ؟ هل كانت الاسباب الرئيسية للهزيمة ، أسبابا سياسة أم اسبابا عسكرية ؟ هل .. هل .. ثم : كيف نفسر الهزيمة ذاتها ؟ .

ان مثل هذه الأسئلة لا تبدو نظرية على الاطلاق . ففى تفسير الهزيمة العسكرية مثلا .. هناك موقفان : موقف يفسر الهزيمة بأنها ترجع الى أخطاء فردية . بمعنى قصور فى ادراك او تصورات عدد من الأفراد أو عدم قيامهم بواجبهم . وموقف يفسر الهزيمة بأنها ترجع لأسباب تتعلق بالكفاءة العسكرية للمقاتل العربى — وبالذات المقاتل المصرى .

والفارق بين التفسيرين هو فارق بين ما يقوله الصديق .. وما يقوله العدو .

فعندما نقول مثلا .. ان واحدا فى المائة من عمال مصنع معين يتغيبون عن عملهم ، فمعنى ذلك أن التغيب هو ظاهرة فردية نبحث عن أسبابها فى الحالة الشخصية لكل فرد . أما اذا قلنا أن ٩٩٪ من عمال المصنع يتغيبون ، فاننا نحكم مقدما بأن التغيب فى هذا المصنع أصبح ظاهرة تمس كل عماله مباشرة . فاذا أصبح ظاهرة عامة غير فردية .. فان علاجها لا يمكن أن يتم بتغيير أو تعديل أو حلول سريعة فى مدى قصير .

ومن الطبيعى أن نجد مصلحة العدو قائمة فى نشر التفسير الثانى .التفسير الذى يحول الهزيمة الى ظاهرة عامة لا يجدى معها العلاج قصير المدى . وهو على اى حال تفسير حرصت القوى الاستعمارية على زرعه فينا طوال التاريخ الحديث فى منطقة الشرق الاوسط .

وبالمقياس نفسه . .فاننا نجد أيضا أن هناك موقفين فى تبرير هزيمتنا الضخمة أمام اسرائيل . الموقف الأول يقول انها هـزيمة حضارية . فعلى رمال سيناء لم يكن هناك جيش يواجه جيشا .. وانما كانت حضارة تواجه حضارة ، وغربا يواجه شرقا . فاذا كنا نريد أن ننتصر على اسرائيل ، فيجب أن تكون هذه هى نقطة البداية : التفوق الحضارى .

والموقف الثانى يبرر الهزيمة بأنها هزيمة جيل بأكمله ، او على الأقل هزيمة نظام سياسى هنا على يد نظام سياسى هناك . فاذا كنا نريد أن ننتصر على اسرائيل .. فيجب أن تكون هذه هى نقطة البداية : نظام يدافع عن نفسه .. وجيل يبرر وجوده .

اما نقطة الاتفاق بين الموقفين فانها تكمن فى ادانة أشياء كثيرة كانت موجودة فى مصر صباح الخامس من يونيو . ولكن بعد ذلك — فان الفجوة بين الموقفين واسعة وعميقة . فجوة تحتـاج الى قرون لسدها .. طبقا لأصحاب المـوقف الاول ، وتحتـاج الى سنوات فقط ، طبقا لأصحاب الموقف الثانى .

* * *

وبالطبع ليس هـذا مجال الحـديث تفصيليـا عن اسـباب هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ . ولكن — بصفة عامة — نحن نخطىء كثيرا لو تصورنا أن أمامنا قائمة جاهزة ومنطقية من الاسباب التى كانت تبرر هزيمتنا الضخمة أمام اسرائيل فى ١٩٦٧ . لم تـكن هنـاك مبررات كافية . لا مبررات للهزيمة ولا مبررات لضخامة الهزيمة.

ان السياسة ليست سوى حساب لنسب القوة . ان الذى يهزم فى ميدانها اما أن يكون قد أخطأ الحساب ، أو انه ترك هذه القوى تنطق ضد مصلحته .

وما حدث فى ١٩٦٧ هو اننا أرتكبنا الخطأين معا : اخطأنـا فى الحساب سياسيا ، وكذلك تركنا علاقات القوى العالمية تنطق ضدنا.

ولكن الحسابات الخارجية لم تكن هى العامل الوحيد ضدنا فى صباح الخامس من يونيو ..

لقد كانت هناك عوامل داخلية كثيرة .. تقيد عضلاتنا فى الداخل ، حتى قبل ان نتجه الى ميدان القتال . ان النقطة الحاسمة هنا ليست هى : متى واين بدات هذه العوامل؟ ان التاريخ هو نسيج غير متكامل ، وقرار اختيار النقطة التى بدات عندها أسباب هزيمتنا سوف يكون دائما قرارا تعسفيا . ان من الممكن ان تكون الهزيمة قد بدأت عندما هددنا بالحرب ، دون أن نقصد الحرب . ويمكن ايضا أن تكون الهزيمة قد بدأت قبل ذلك بسنوات طويلة ، عندما نسينا اسرائيل كعدو رئيسى وخلقنا لأنفسنا أعداء وهميين بين صفوفنا . ويمكن ثالثا أن تكون الهزيمة قد بدأت : عندما أعفينا كل شىء هام فى حياتنا من النقد والمراجعة او عندما أعطينا لبعض الأفراد شيكات على بياض ، يحصلون بمقتضاها على سلطات مطلقة .. انتهت الى كارثة مطلقة . كذلك يمكن أن تكون الهزيمة قد بدأت فى اللحظة التى أصبح الارتجال فيها قاعدة — وليس استثناء — فى سياستنا . يمكن .. ويمكن .. ويمكن ..

ولكن الذى لاشك فيه .. ان الهزيمة قد بدأت فى اللحظة التى اهملنا فيها معرفة العدو ، ووضعناها فى نقطة متأخرة من جدول الأولويات فى مجتمعنا .. !!

ان الانتصار الاسرائيلى الحاسم فى الساعات الأولى من صباح ٥ يونيو ، أعتمد ، مثلا ، على معرفة دقيقة بمواقع مطاراتنا وانواع طائراتنا وتشكيل قواتنا . انها بالطبع معلومات لم يجمعها العدو ، ولم نهمل نحن فيها ، قبل الحرب بخمس دقائق .. !

وعندما نشبت الحرب فجأة .. اكتشفنا نحن — فجأة أيضا — أنه بينما كان العدو يركز مجهوده مثلا على معرفة تصميم طائرات الميج كانت مراكز القوى عندنا تفخر بأنها تعرف آخر نكته يرددها الناس فى مجالسهم الخاصة ، وتعرف أين سهر عبد الصمد .. ومتى نامت نجوى خارج سريرها .. وماذا قالت ليلى فى التليفون أمس .

نعـــم ـــ كانت التفاصـــيل الصـــغيرة فى حيـــاتك وحيـــاتى وحياتها وحياتنا هى من وجهة نظر الأمن .. أكثر أهمية من التفاصيل المطلوبة عن العـــدو .

ان هذا معناه أن الأجهزة عنـــدنا كانت تخـــدم الافراد .. ولا تخدم الأمة . كانت تسعى لتحقيق النزوات .. بدل أن تسعى لخوض الحرب . وعندما لم يتم تدارك هذا الخطأ الفادح فى الوقت المناسب .. فان الخطأ تضخم ، الى أن اكتشفنا فى صباح الخامس من يونيو انه لم يصبح خطأ . أصبح مرضا .

* * *

ميدان آخر أخطأنا فيه قبل ميدان القتال ـــ ميدان الاعلام . ان من كان يقرأ صحفنا ، أو يستمع الى اذاعتنـــا ، فى الفترة الســـابقة على ٥ يونيو ، كان يحس بالطمأنينة المطلقة ، والفخر المتزايد . أن الطمأنينة مطلوبة ـــ طبعا ـــ والفخر ضرورى .. حقا .. ولكن بشرط الا تكون طمأنينة وهمية أو فخرا كاذبا . لقد كنا نحسب كل شىء ـــ على ورق الصحف ـــ بدقة متناهية .وطالما فعلنـــا ذلك على الورق .. فاننـــا كنا نتنفس الصـــعداء و .. نستريح .

نعم . كانت الشعارات المبهرة .. بديلا عن التطبيق المبهر ، وكانت الأقوال الضخمة .. بديلا عن الأعمال الضخمة .

لقد خلقنا لأنفسنا ـــ عن طريق أجهزة الأعلام عندنا ـــ دنيـــا مثالية ، نحن فيها أقوى الناس ، وصوتنا فيها أعلى الأصوات ، وحساباتنا أدق الحسابات . دنيا نكسب فيها الحروب بقرار .. وندخل فيها المعارك بهزة راس .. ونحل فيها المشاكل فى غمضة عين .

لقد كانت لاذاعتنا دنيـــاها الخاصة بها ، وحقائقها الخاصـــة بهـــا .. وهى دنيا وحقائق لا علاقة لها بالواقع .

لقد قلنـا لأنفسنا ان الحـرب نزهة ، والمعركة هى مجـرد ست دقائق نصل فيها الى تل أبيب وبعـدها ينتهى كل شىء . وعندما بدأت الحرب ، وعندما لم ينته كل شىء فى ٦ دقائق ، فان خيبة الأمل بدأت فى عقولنا من الدقيقة السابعة . ان الذين دفعوا ثمن هذه الدعاية الكاذبة هم نحن ، وليس عدونا . لقد أصبحنا نحن الضحايا . ضحايا أوهام ومبالغات اخترعناها ، وبعد ذلك رددناها . وفى النهاية صدقناها .

لقـد نظرنا الى الواقع فلم يعجبنا ، وحينئذ لجأنا الى خلق واقع آخر يعجبنـا .. واقع وهمى نقرأ عنه فى صحفنا فقط ، ونسمع عنه فى اذاعتنا فقط ! .

واذا كنا قد ارتكبنا أخطاء كثيرة بهذا الوضوح — واستغلتهـا اسرائيل الى الحد الأقصى — فان هنـاك أخطاء أخرى أساسية ارتكبناها ، وان كانت أقل وضوحا مع انها أكثر خطورة .

* من هذه الأخطاء .. اننا قلنا لأنفسنا مثلا أن تفوقنا العددى سيحسم فى النهاية المسألة كلهـا . وطالمـا أن عدونا ٣ ملايين ، ونحن مائة مليون ، اذن فلا بد بالحساب — أن المائة سـتهزم الثلاثة . ان هذا ليس منطقا صالحا دائما ، فمائة عصا لا تهزم بندقية واحدة — ولكن المنطق كان يغيب عنا خصوصا عندما نصـل الى مناقشة المسائل الحاسمة فى حياتنا .

ومثلما اعتقدنا من قبل أن الـكلمات الضـخمة هى بديل عن الأعمال الضخمة ، كذلك هنا ، اعتقدنا أن الأعداد الضخمة هى بديل عن الاستعدادات الضخمة .

* وقلنا لأنفسنا أيضا : ان الزمن هو بطبيعته — معنا ضـد اسرائيل . لقد اعتمدت الاستراتيجية العربيـة طويلا على وجود افتراض قوى يقول ان الوقت هو — فى المدى الطويل — معنا ضد اسرائيل . وقد نبشنا فى التاريخ عن أمثلة تؤيد هذا الافتراض ، فقلنا ان الصليبيين استعمروا فلسطين ٨٠ سنة ، ثم خرجوا .

نعم . الصـــــليبيون خرجوا . ولـــكنهم لم يخرجوا بحـــكم الاقدمية الزمنية ، ولا بمضى المــدة .. ولم يخرجوا ، لان منطق التـــاريخ هو الذى اخرجهم ! لقـــد اخـــرجتهم القوة والقـــوة وحدها .. بصرف النظر عن الزمن . وعندما خرجوا — بعد ٨٠ ســـنة — لم يكن معنى هـــذا انه كان من الضرورى أن يظلوا فى فلسطين ٨٠ سنة .. ولكن معناه ببساطة اننا لم نملك القـــوة اللازمة لاخراجهم الا بعد ٨٠ سنة . ولو توافرت لنا تلك القـــوة قبل ذلك .. لأصبحت مدة بقائهم ٥٠ سنة ، أو ١٠ ســـنوات ، أو حتى ١٠ أشهر .

اننا اذن .. لم نكن نلجأ الى التاريخ لكى نفهم معناه ، ولـــكن لكى نستنجد به فى دعم منطق مختل نردده لأنفسنا . منطق يرى ان الزمن هو بطبيعتا ومن تلقاء نفسه كفيل بحل المشكلة بيننا وبين اسرائيل . لقد نسينا أن الزمن بطبيعته هو عنصر محايد . ان الزمن لا يمكن أن يكون معنا تلقائيا .. أو ضدنا تلقائيا . ان عملنا نحن .. هو الذى يجعل الزمن معنا أو ضدنا .

ولكى يدخل الزمن عنصرا فى حســـابات القـــوى بيننا وبين عدونا ، فلابد أن تكون باقى العنـــاصر ثابتـــة أو — على الأقل — متساوية . لابد ان نتساوى نحن والعـــدو فى الأخـــذ بمنجزات الحضـــارة .. فى بنـــــاء الدولة العصرية .. فى الاعتمـــاد على المؤسسات وليس الأفراد .. الخ .

واذا كان هذا هو المفهوم الصحيح لأهمية الزمن ، واهميـــة الوقت ، فليس معنى هذا أن علينا — بغير حساب — أن ندخل فى حرب مع اسرائيل الآن .. أو بعد ٥ دقائق . وليس معنى هذا أيضا أن تنظر الى عقارب الساعة فى ايدينا بخوف وفزع وقلق . ان الامم لا تعيش حياتهـــا وهى تحمـــل فى يدها كرونومتر ، أو مقياسا للوقت . ولكن معنى هذا ببساطة هو : أن عملنا وحـــده — مقارنا بعمل عدونا — هو الذى يستطيع أن يجعل الزمن سلاحا معنا أو سلاحا ضدنا .

* وقلنا لأنفسنا زمنا طويلا ان محـاربة العـدو تحتـاج — أولا — الى الوحدة الوطنية . مضـبوط . ولكن الخطأ بدأ حينما قصدنا بالوحدة الوطنية : الصمت . الصمت على العيوب ، على الأخطاء ، بل على الخطايا . من منا مثلا لم يكن يعرف بوجود مراكز القوى قبل ٥ يونيو ؟ من منا لم يكن يعلم بفساد أجهزة المخابرات ؟ من منا لم يكن يرى ما يفعله أهل الثقة ضد الخبرة ؟ من .. من .. من .. ؟ !

كلنا كنا نرى ، وكلنا كنا نعلم ، واذا لم نكن نعـلم على وجـه الدقة ، فقد كنا نحس . ربما لم يعرف بعضنا أن هناك تعفنا .. ولكن معظمنـا كان يشم الرائحـة . ومع ذلك لم يرتفع صـوت واحد . انه لم يرتفع لاننا — قبل ٥ يونيو بوقت طويل — كنا قد قضينا على أى فرد ، أو أى مؤسسة ، يمـكن أن تقول « لا » . لا .. لأهل الثقة ، لا .. للمحسوبية ، لا .. لفسـاد المخابرات لا .. للاخطاء السياسية . لقد تصرفنا دائما على أساس أن قمة السلطة هى قمة الحكمة ، وان الحكمة لها مفتاح سحرى واحـد يملكه شخص واحد فى كل جهاز ، وجهاز واحد فى كل المجتمع . لقد أدى هذا الى اشاعة احساس عام بأنه ليس بالامكان أبدع مما كان . وفى النهاية .. كان أخطر ما فى الأمر — من وجهـة النظر السيكلوجية — هو التزايد السريع للافكار المسبقة الجـاهزة ، غير القابلة للمناقشة .. والتى أصبحت فألا سيئا للمستقبل . لقـد وضعنا النـاس أمام بديلين لا ثالث لهما : اما أن تقـول نعم لكل شىء — صواب أوخطأ — واما أن تقول لا لكل شىء — صحيح أو خطأ — واما أن تقول لا لكل شىء صحيح أو عفن . ان الخلل فى هذه النقطة تركز على مفهوم خاطىء زرعناه فى أنفسـنا وتقبلناه لفترة طويلة ، مفهوم يقول ان الوقوف فى الصف معناه الصمت عن الأخطاء . معناه أن نقول جميعا الكلمات نفسها ونردد الشعارات نفسها ونصفق للجمل نفسها !! لقد نسينا أن التنوع هو نفسه قوة ، ونسينا انه قد يكون من المسـتحيل أن نصحح كل خطأ .. ولكن لا خطأ يمكن تصحيحه الى أن نواجهه . نسينا أن قطعـة القماش قد تتعدد فيها الألوان والخيوط .. ولكنها تبقى فى النهاية قطعة قماش واحدة متماسكة .

ان اسرائيل لو قدر لها الاختيار ــ لاختارت مصر الصامتة على أخطائها ، قبل أن تختار مصر المهزومة فى ميدان القتال . ان مصر المهزومة فى الميدان لن تبقى مهزومة دائما ، ولكن مصر الصامتة على أخطائها ــ المتعفنة من الداخل ــ لن تنتصر أبدا !!.

* * *

وأخطأنا ايضا حينما تركنا الجيش يتحول الىقوة بوليس أخرى ، لحراسة نظم الحكم . لقد كان من مظاهر ذلك أن نظم الحكم السياسية فى مجتمعنا العربى استدارت أولا الى الجيش لكى تعطى فيه الأولوية لاعتبارات الولاء الشخصى ، قبل أن تكون للكفاءة العسكرية المحترفة ، وفى معظم الأحيان كان يتم التضحية بالكفاءة لمصلحة الولاء .

وحينما نخرج الى المجتمع الكبير نجد نفس المبدأ قائما : الولاء قبل الكفاءة . . الولاء للنظام السياسى قبل الولاء للوطن . وطالما الأمر كذلك ، فأن الولاء للنظام السياسى كان يستقر أخيرا عند الولاء لأشخاص ، بدلا من أن ينتهى عند الولاء لمبادىء .

ولقد كان هذا يفرض بدوره نوع الأشخاص الذين يتم اختيارهم للمراكز القيادية فى المجتمع كله . أشخاص يملكون النفاق قبل القدرة ، والطاعة قبل المناقشة ، والتصفيق قبل المعارضة . والموافقة قبل المراجعة .

وطالما ان هؤلاء هم الذين يتمتعون بالثقة ، فأنهم كانوا يمثلون قوة طاردة مركزية لأية كفاءة لديها علم تملكه ، أو تخصصا تتيحه ، أو دراسة تقدمها ، أو موهبة تعرضها ، أو رأى تقوله .

ولم يكن غريبا أن هذه القيادات نفسها هى التى أسرعت لحظة الكارثة فى استحضار شهادات مرضية من التاريخ ، فى محاولة لاعفائها من الحساب والمسئولية ، و .. أعفيت من المسئولية .

ولكن ، حتى قبل هذا بوقت طويل .. كانت هذه النتيجة تدخل فى النطاق الذى يمكن التنبؤ به .

ففى أى نظام سياسى . يصبح بعض الناس اخصائيين فى السياسة .. وهؤلاء هم الذين يتحملون مسئوليات خاصة فى اتخاذ القرارات العامة . وتحديد هؤلاء الأشخاص ونوعهم وكفاءتهم هو من الأمور الهامة والجذابة فى أى بحث سياسى . لأن هذا هو الذى يحدد فى النهاية ما هو المعيار وراء اختيار كل شخص ، وأين تنتهى سلطته ، وأين تبدأ مسئوليته ، وما هى بالضبط الأشياء التى يحاسب عليها .

ورغم المنطق البسيط الذى تعتمد عليه هذه النقطة ، الا اننا لو بحثنا فى أمورنا السياسية قبل النكسة ، فسوف نجد أنفسنا فورا فى متاهة لا نهاية لها . سوف نجد أن السلطة السياسية فى مجتمعاتنا لم تكن ابدا سلعة موحدة تشترى دائما من نفس العنوان ، وبكميات محددة ، وحسب سعر مستقر ، لكى تستعمل فى أى موقف سياسى . أبدا . الذين يتعرضون للحساب لا يتمتعون بالسلطة ، والذين يتمتعون بالسلطة لا يتعرضون للحساب . انهم — أصحاب السلطة — هم غالبا أشخاص غامضون فى عناوين غير معروفة ، ومن الممكن أن يكونوا أبطالا فى الساعة الثامنة ، وخونة فى الثامنة والربع .. والأسباب أيضا غير معروفة . لهذا كانت أخطر القرارات تصدر وتلغى .. وأعظم الخطط تبدأ وتنهار .. وأكبر الشعارات تولد وتموت .. بغير أن نعرف لماذا ولدت .. ولا لماذا ماتت .

نعم .. نعم .. لم يكن معروفا أبدا : أين ينتهى قيصر .. وأين يبدأ الشعب .

● ان خطورة مثل هذا المناخ هو فى انعكاساته اليومية على المواطن العادى . مواطن كان يجد دائما أن الأحداث أكبر منه .. وأن من الأفضل له ألا يحاول فهمها . مواطن يحرص على الطاعة قبل النقد ، والعدالة قبل الكفاءة ، والأقدمية قبل الابتكار ، والأمن قبل الاختلاف ، والتصفيق قبل الفهم .

لقد كانت النظم السياسية تدفع المواطن دفعا يوميا الى ان يكون شريكا سلبيا فى الأحداث ، والى ان يرى أمامه أعظم القرارات

تستمد حيثياتها من المصادفات العابرة ، واخطر القضايا تبرز أمامه فجأة من لا شيء . . وتنتهى فجأة الى لا شيء .

ان تعامل المواطن مع سلطته ، هو أولى الساحات التى يتدرب فيها على القتال . ولقد كانت السلطة فى مجتمعنا العربى تعطى المواطن الدرس بعد الدرس على أن الخضوع من أول دقيقة ، والاستسلام من أول صدام ، والهزيمة من أول معركة .. هى شيء لا مفر منه .

وكانت أخطر نتائج مثل هذا المناخ هى — فى المدى الطويل — اقسى على مستقبلنا من اى معركة . فلقد كان المواطن يحمل هذه الدروس اليومية المستفادة معه الى منزله ، الى أسرته ، الى الجيل الجديد الذى سيكون عليه مستقبلا أن يحمل مسئوليـــة هذا الوطن . ان الأسرة هى — عادة — أقوى الهياكل الاجتماعية صمودا للتغيير . ولكن ، عند ما يحدث التغيير ، فانه يقع فى مكان آخر أولا ، ثم يتسرب الى العلاقة بين الآباء والأبناء فيما بعد . وعند ما يبدأ الفساد .. فانه يبدأ أولا خارج الأسرة . ولكن ، بمجرد أن يصل الى الاسرة فانه يصبح مرضا خبيثا يحتاج الى عملية جراحية فى المجتمع كله ، لكى يتم استئصاله .

هكذا وصلنا ، فى سنة ١٩٦٧ ، الى نتيجة لم تكن فى الحسبان : ان مشكلتنا لم تعد هى الفساد .. وانما هى التعود عليه !

● ان دراسة التفكير السياسى فى اى مجتمع معناه بالضرورة دراسة الثقافة السياسية : كيف يفكر الناس ؟ ما هو شعورهم بالنسبة للعالم السياسى ؟ ما هى معتقداتهم ؟ ما الذى يؤمنون به ؟ ما الذى يرونه هاما .. والذى يرونه أقل اهمية ؟

ومع أن كل انسان هو — فى هذا الاطار — مشبع بأفكار كثيرة ومتنوعة .. الا أننا لا نحتاج دائما الى فحص كل شجرة فى الغابة على حدة . انما يكفينا أن نفحص الأفكار الأساسية التى تشبعت بها الأغلبية .. لكى نصل فى النهاية الى صورة تقريبية .

والصورة أمامنا — حتى ١٩٦٧ — لم تكن تتضمن غير لونين اثنين فقط : الأبيض والأسود . فالمواطن العادى كان يتم تدريبه على أن العالم ينقسم الى نوعين : ملائكة وشياطين ، أصدقاء وأعداء ، دول معنا دائما .. ودول ضدنا الى ما لا نهاية . انه يقرأ دائما وجهة نظر واحدة ، ويستمع دائما الى رأى واحد . ان هذا الرأى هو وحده الصواب ، وأى شىء آخر هو الخطأ . ان عليه أن يؤمن بأن كل ما يراه هو الحق .. وكل ما لا يراه هو الباطل . ان النظام السياسى هو دائما ممثل للخير .. طالما هو قائم ومستمر . وفجأة يصبح ممثلا للشر .. طالما هو قد سقط . ان كل قرار يتخذ بالنيابة عنه — عن المواطن — هو قرآن مقدس .. وكل قرار يرفض — بالنيابة عنه أيضا — هو كفر مقدس ! ان اسرائيل ليست خطرا على الاطلاق ، فهى مجتمع مشحون بالجبن وسوف ينهار غدا .

وحينما نشبت الحرب فى سنة ١٩٦٧ ، كان المواطن يعلم لأول مرة أن اسرائيل هى الخطر الأكبر ضدنا ، وضد مستقبلنا . ان اسرائيل لها جيش يغزو أراضينا ، وجنودها يسيرون على دقات طبول حقيقية ، ومدافعها تحدث جروحا قاتلة ، كما أن فيها بيوتا ومدارس ومحطات للاذاعة واشارات مرور ودبابات وعملة وسجون وشرطة طائرات . ان البلاغة الكلامية والمبارزات الخطابية معها لم تهزمها أمامنا فى ميدان القتال ، وان المسألة أكثر جدية من ذلك . أكثر جدا . لم تكن مبارزة خطابية هذه المرة ، ولكنها مبارزة بالمدافع والدبابات والطائرات . فى هذه المرة ليست اسرائيل هى التى تبحث عن ضمان دولى لوجودها ، وانما نحن — نحن العرب — هم الذين أصبحوا يحتاجون الى ضمان لوجودنا ، بعد أن سجل علينا التاريخ — منذ سنة ١٩٤٨ — تراجعا مستمرا أمامها ، وغزوا مستمرا لأراضينا نتعرض له منها .

● ومن المخجل ان جزءا كبيرا من منطقتنا المريض استمر بيننا .. حتى بعد كارثة ١٩٦٧ . ان البناء الضخم انهار بأسرع مما نتصور ، والكارثة أصبحت أكبر مما نتوقع ، والهزيمة أكبر فداحة مما نقدر ، وعلى الفور خرجت من بيننا أصوات تحاول

ارغامنا على ابتلاع هذه الهزيمة ، بل ـــ وهذا هو المخجل فى الموضوع كله ـــ تصويرها كما لو كانت انتصارا !

كان هذا المنطق بسيط وضخم ، مثل كل الاكاذيب الكبرى فى التـــاريخ . منطق يقول : ان اسرائيل حينما هاجمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ، فانها لم تكن تريد بذلك ان تغـــزو أرضنا ، وانما كانت تريد أساسا أن تسقط نظمنا السياسية . وطالما أن هـــذه النظم لم تسقط .. اذن فاسرائيل لم تحقق أهدافها . وطالمـــا نحن لم نسمح لاسرائيل أن تحقق أهدافها ـــ بشكلها هذا ـــ اذن .. نحن انتصرنا !

ياســـلام ؟ !

كم من الوقاحة ، فضلا عن الجهل ، يحملها مثل هذا المنطق ! لقد نسينا أن اسرائيل هى فى صراع ضدنا جميعا : حكاما ومحكومين .. يمينا ويسارا .. مسلمين ومسيحيين . نسينا أننا لو لم نكن مصريين ، لو لم نكن عربا ، لو كنا اسكيمو .. أو هنود حمر .. أو شيوعيين .. او راسماليين مثلا .. فان اسرائيل كانت ستظل لها معركتها الخاصة معنا ايضا .. نفس المعركة ، ونفس الأهداف. وحتى لو خرجت من بيننا حكومة لتتصالح مع اسرائيل غدا ، فلن يكون هـــذا مطلقا نهـــاية للأهداف الاسرائيلية ، وانما الأهداف ستستمر ، والصدام سيستمر .. طالمـــا المصالح تتعارض . مصالحنا ضد مصالح اسرائيل ، وارضنا ضد توسعات اسرائيل .

● ومنطق مريض آخر خرج أيضا بعد النكسة ، هذه المرة اكثر بساطة ، ومن ثم اكثر اغراء هذا هو : نعم .. نعم .. لقد واجهنا نكســـة كبرى .. وعلينا الآن أن نصححها . لمـــاذا اذن نضيع وقتنا فى معرفة اسباب النكسة ؟ ان أمامنا المستقبل ، فلا داعى لفتح جراح المـــاضى . المستقبل اكثر أهمية . وحينما نصحح آثار العدوان ، فسوف يكون لدينا متسع من الوقت لكى نعرف ونناقش فى حينها : ماذا جرى .. ولمـــاذا جرى !

ومثل كل حق يراد به باطل ، فان هذا المنطق أصبح نوعا جديد، من المخدرات نتعاطاها باسم التركيز على المستقبل . لقد نسيند أن الانهزامى ليس هو فقط الذى يتبنى وجهة نظر العدو ، وانما هو أساسا الذى يمنعنا من معرفة نقط ضعفنا فى مواجهة العدو . وحتى فى حياتنا اليومية ، فان أى طبيب يعلم أن تشخيص المرض — بدقة وصراحة — هو نصف العلاج . وما لم نعرف مبدئيا اين يوجد المرض ، فلا فائدة ترجى مطلقا من أى علاج . وما لم يتم علنا ادانة كل النماذج والأسباب ونقط الضعف التى أدت الى الكارثة .. فلا يوجد أى بديل لتفادى كارثة جديدة . لقد هزمنا فى سنة ١٩٤٨ فقلنا : كان السبب هو فساد نظام الحكم ، ثم : سكوت . وهزمنا فى سنة ١٩٥٦ ، فقلنا : كان السبب هو تآمر دولى ثم : سكوت . وفى هذه المرة قلنا أشياء أخرى غامضة ومطاطة ، ثم : سكوت ! قلنا أن قوى سحرية غامضة وقفت ضدنا — أحيانا نسميها الله .. وأحيانا نسميها أمريكا . وقوى أخرى غامضة سوف تقف معنا : أحيانا نسميها الله .. وأحيانا نسميها الاتحاد السوفيتى . ثم : سكوت ، فالمستقبل أكثر أهمية من الماضى .

بالتأكيد : المستقبل اكثر اهمية من الماضى . ولكن ، بغير دراسة وتمحيص وتشريح — حتى — لهذا الماضى .. فان المستقبل لن يكون أبدا شيئا مختلفا ، ولا هو معجزة سحرية تهبط علينا من السماء . ان المستقبل هو شىء جاد للغاية ، وهو لن يكون كذلك الا اذا خرجنا من الماضى بدروس محددة ودقيقة و .. جادة للغاية .

اننا لو تأملنا الدروس الأساسية لحرب ١٩٦٧ ، فانها لن تخرج غالبا عن دروس حرب ١٩٤٨ . ولكن ، لأننا كنا دائما نكره هؤلاء الذين يقذفون بالحقائق فى وجوهنا . ولأن أفكارنا كانت تعبر عن الامانى بأكثر مما تعبر عن الواقع ، ولأن خداع النفس كان أكثر اهمية — واكثر راحة أيضا — من مواجهة النفس ، فاننا كنا نفاجأ فى كل مرة بأن كارثة جديدة قد وقعت ، وأن أسباب هذه الكارثة قد لازمتنا طويلا ، وكانت معنا دائما .. دون أن نلتفت اليها ، وفى أحسن الفروض ، دون أن نستوعبها أو نتجاوزها .

لقد دخلنا حرب ١٩٥٦ بمنطق حرب ١٩٤٨ ، ثم دخلنا حرب ١٩٦٧ بتفكير سنة ١٩٥٦ .

لقد كان العالم كله يعرف حقيقة المكاسب التى خرجت بها اسرائيل من حرب ١٩٥٦ . العالم كله يعرف .. ما عدانا نحن . نعم .. نحن الطرف الاول ... كنا الطرف الأخير .. وحينما عرفنا ، فاننا عرفنا بعدها باحدى عشر سنة ، وبطريقة عابرة غير مؤكدة . أن السبب فى ذلك هو اننا تصورنا أن الأمر يجب أن يتم عرضه للناس باعتباره انتصارا مطلقا لنا ، وهزيمة مطلقة لعدونا . وبينما العالم كله كان يرى انسحابنا العسكرى فى سنة ١٩٥٦ باعتباره انسحابا ، كنا نحن نراه باعتباره انتصارا . ونتيجة لهذا الخلل فى التفكير ، فلقد استقر فى أذهاننا أن الانسحاب هو عمل عبقرى فذ . وعند أول استدارة للأحداث ضدنا فى حرب ١٩٦٧ — صدر قرار بالانسحاب .. وكأن الانسحاب قد أصبح تقليدا يجب ان نحافظ عليه .

ولقد بلغ الاستهتار بأمن الوطن مداه ، حينما اكتشفنا فجأة اننا نحارب اسرائيل من الذاكرة ! فمنذ سنة ١٩٥٦ — وطوال احدى عشر سنة كاملة — حتى سنة ١٩٦٧ ، بلغت حساسية القيادة العليا — أو استهتارها بتعبير أدق — الى حد أن منعت أى استطلاع جوى أو ارضي داخل اسرائيل . ونتيجة لذلك ، فلم تخترق طائرة مصرية واحدة المجال الجوى الاسرائيلى طوال تلك الفترة ، كأننا — لحظة الحسم — سوف نمارس ضد اسرائيل حربا غيابية . !

● كل هذه كانت أخطاء قاتلة ، فى حق وطننا بالدرجة الأولى ، اخطاء عاشت معنا ، ولكن الاقتراب منها كان ممنوعا .. حتى لا تتشوه الصورة الوردية التى صنعناها لأنفسنا . ان الأمثلة هنا كثيرة ، ولكن الأهم منها أنها تعبر عن أسلوب مريض فى التفكير عشنا به ، وعاش معنا ، طويلا . أسلوب لا يريد مواجهة المشاكل والأخطاء ، ولكنه — بدلا من ذلك — يتظاهر بأنها غير موجودة . نعم .. كنا نثبت بذلك انه ليس هناك أعمى أسوأ من ذلك الذى يرفض أن يرى .

لقد كانت النظرة السائدة هى أن من الأفضل دائما أن نخفى مشاكلنا فى « البدروم » .. حتى لا يرى العالم نقط ضعفنا . كان هذا أسهل ، ولكنه أيضا كان أسوأ . فالعالم رأى كل شىء ، ونحن فقط الذين لم نر أى شىء . وعندما تحركت الأحداث فى مايو سنة ١٩٦٧ — كانت اسرائيل تقول على لسان قادة جيشها : « اذا أردنا أن نكسب الحرب . فلا بد أن نكسب المعركة الأولى » .. بينما كنا نحن نقول ونعلن : « اذا أردنا أن نكسب الحرب .. فلا بد أن نخسر المعركة الأولى » .

ان هذا يعيدنا من جديد الى مناقشة سؤال رئيسى .. ما هو هدف اسرائيل من الحرب ؟ حرب وقعت فى الماضى .. أو حرب ستقع فى المستقبل . ؟

***

ان الخبراء العسكريين يعلمون ، خصوصا بعد الحرب العالمية الاولى ، ان هناك درسا أساسيا هو : « ان هدف الحرب الحقيقى هو روح العدو .. وليس أجساد جنوده » .

فالمفهوم النهائى للنصر .. هو خلق حالة استعداد للاستسلام لدى العدو .. وتصبح العمليات العسكرية هنا مجرد وسيلة للوصول الى هذه النتيجة .

وما دامت اسرائيل لم تحقق هذا الهدف ، وما دمنا نحن منتبهين لهذا الهدف .. فان الكلمة الأخيرة لم يقلها أحد بعد .

ان الذين يتابعون العقل الاسرائيلى وهو يفكر (ونحن فعلنا شيئا من ذلك لو حللنا الكتب الاسرائيلية التى عرضها هذا الكتاب) فاننا سنكتشف أن حرب يونيو ١٩٦٧ لم تكن اختراعا .. وانما كانت مجرد تطبيق لفن الحرب الذى عبر عنه « سان تسى » سنة ٥٠٠ قبل الميلاد حينما قال :

« ان الحيلة هى أساس فن الحرب . لذلك .. ينبغى التظاهر بالعجز عندما تزداد القدرة على الهجوم ، والتظاهر بعدم

العمل عند الرغبة فى استخدام الجيوش ، واقتناع العدو بأننا بعيدون عنه عندما نكون على مقربة منه ، وبأننا قريبون ونحن بعيدون عنه . استخدموا الفخ لجذب العدو ، وتظاهروا بالفوضى .. ثم حاربوه » .

ولعل شيئا من هذا كان يدور فى رأس « بن جوريون » عندما قال أكثر من مرة « يجب أن نتكلم عن السلام كما لو كنا لن نحارب .. ونتكلم عن الحرب كما لو كنا لا نريد السلام » . ولعله أيضا ــ بن جوريون ــ كان أكثر وضوحا عندما قال فى أعقاب حرب ١٩٤٨ : « نحن لم ننتصر لاننا أتينا بعجائب ، بل لأن الجيوش العربية لم تكن فى حالة جيدة » . وبعد ١٩٦٧ قال « ايجال آلون » نائب رئيس وزراء اسرائيل : « ان الانتصار الاسرائيلى يرجع الفضل فيه أولا الى الاخطاء الضخمة التى ارتكبها العرب » .

ان أى فحص لاستراتيجية اسرائيل العسكرية ضدنا ، سوف يقودنا الى النتيجة التى لا مفر منها : ان اسرائيل لم تهزمنا بفضل اختراع مدهش ، ولا بفضل قوة سحرية غامضة . ان ما فعلته اسرائيل هو ما يجب أن يفعله أى محارب فى أى موقف عسكرى حاسم .

لقد كان العرب ــ منذ سنة ١٩٤٨ ــ يلتزمون موقف الدفاع فى مواجهة عدو يطبق دائما استراتيجية هجومية . استراتيجية تعتمد اساسا على ان يحتفظ لنفسه دائما بحرية العمل والمبادأة ، التى هى أحد المبادىء الستة للحرب . وحتى حينما كانت اسرائيل تهاجمنا ، فاننا كنا نرد على الهجوم بدفاع مباشر ، وهو حل سىء يتساوى مع الثور الذى ينقض على الغلالة الحمراء ، بينما كان يجب عليه أن ينقض على مصارع الثيران نفسه .

ان ما فعلته اسرائيل فى حروبها ضدنا لم يكن اختراعا ، ولكنه شىء موجود فى أى كتاب عن مبادىء الحرب يتم تدريسه للطالب فى أى كلية عسكرية . لقد كانت اسرائيل تهاجمنا دائما ، مستخدمة فى ذلك استراتيجية الهجوم غير المباشر . استراتيجية تعتمد ــ بتعبير الجنرال بوفر مدير معهد الدراسات الاستراتيجية

الفرنسية – على « .. عدم امساك الثور من قرنيه » .. أى عدم مواجهة العدو فى اختبار قوة مباشر ، وعدم التعرض له الا بعد اثارة قلقه ومفاجأته وكسر توازنه عن طريق مدخل غير متوقع ووسائل ملتوية . بعبارة أخرى تعتمد استراتيجية الهجوم غير المباشر على مفاجأة الخصم من اتجاه غير متوقع .

وبهذا الشكل – يقول الجنرال بوفر – فان « .. هدف المعركة يرمى الى نشر الفوضى فى القوات المتماسكة المتناسقة والتى تتكون من حائط من المقاتلين . ونشر الفوضى ينجم عن عمليات تطويق أو قطع أو خرق . وعند ما يتم تصدع حائط العدو فان الدفاع ينهار . والخطر من ذلك هو انه يولد بالنسبة لكل جندى صدمة سيكولوجية تؤدى الى تبخر الرابط المعنوى الذى يجمع بين المقاتلين ، ويتحول الجيش المتصدع الى جمهرة من الأشخاص .. »

ليست استراتيجية الهجوم غير المباشر اختراعا اذن . ومع أن اسرائيل كانت تستخدمها معنا فى كل مرة ، ومع أنها لم تكن تلجأ الى الدفاع الثابت أبدا ، الا أننا كنا نصاب فى كل مرة بدهشة بالغة ونواجه سؤالا مروعا : كيف حدث هذا ؟ !

لقد كانت استراتيجية الهجوم غير المباشر هى دائما أحد الأعمدة الأساسية التى يعتمد عليها كل قائد عسكرى فى التاريخ .

لقد استخدمها الاسكندر الأكبر فى زحفه على فارس وفلسطين ومصر .

واستخدمها هانيبال ضد الجيش الرومانى ، فى غزوه لايطاليا عبر جبال الألب .

واستخدمها فابيوس ضد هانيبال نفسه .

واستخدمها خالد بن الوليد فى معركة اليرموك .

واستخدمها نابليون ضد الجيش النمساوى فى ايطاليا .

واستخدمها هتلر فى غزوه لفرنسا .

واستخدمها الحلفاء فى نزولهم بشمال افريقيا .

ثم — أخيرا — استخدمها الجيش الاسرائيلى فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

وقبل حرب ١٩٦٧ بست سنوات كاملة ، فان « ايجال آلون » — النائب الحالى لرئيسة وزراء اسرائيل — نشر مقالا فى لندن بعنوان « اسرائيل يجب أن تضرب أولا » .. وقال فيه : « انه بالنسبة لاسرائيل .. فان من الأفضل — فى حالة الضرورة — أن تقوم بعمل مضاد فى الوقت المناسب ، ثم ندان .. عن أن ننتظر الى أن يتم تدميرنا ، ثم نحصل على عطف العالم » .

***

ان الحركة الصهيونية كانت واضحة الأهداف منذ البداية .. واضحة الأهداف للجميع .. ما عدانا نحن .

فعندما انتهى المؤتمر الصهيونى الأول فى « بازل » سنة ١٨٩٧ كتب « تيودور هرتزل » يقول : « فى بازل ، تأسست الدولة اليهودية » .

وعندما صدر « وعد بلفور » فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، نشرته صحيفة « الديلى اكسبريس » البريطانية بعنوان : دولة لليهود ، ونشرته « التايمز » بعنوان : فلسطين لليهود ، ونشرته « الاوبزرفر » بعنوان : بعد جيل واحد تصبح فلسطين لليهود .

ومنذ البداية .. كانت الصورة التى قدمت بها الحركة الصهيونية نفسها الى العالم .. هى صورة الحركة القومية التى تريد العودة الى ارض سلبت منها . حركة قومية .. مثل كل الحركات القومية الأوروبية التى بزغت فى القرن التاسع عشر . ومعظم الكتب الاسرائيلية التى قدمناها فى الصفحات السابقة .. كانت تعرض هذه الصورة بشكل أو بآخر .

وبالطبع لم يكن هذا صحيحا ، لا علميا .. ولا تاريخيا . وأى مقارنة سرعان ما تلغى الأساس القومى للحركة الصهيونية .

فالحركة القومية لتوحيد المانيا ، جمعت بين دول كاثوليكية مثل بافاريا .. ودول بروتستانتية مثل بروسيا .

والحركة القومية الايطالية اقترنت بحرب دامية بين الايطاليين والنمسويين ، مع أن كليهما ينتهى للمذهب الكاثوليكى . واقترنت أيضا بتجريد البابا من سلطاته الزمنية ، ومن ممتلكاته الواسعة .

والحركة القومية اليوغسلافية ، وحدت « الصرب » الارثوذكس مع « الكروات » الكاثوليك مع « البوشناق » المسلمين .

وبصفة عامة .. فان الحركات القومية لم تجد أساسها فى الدين ، ولم يمثل الدين ولا المذهب فى أى منا دورا رئيسيا أو فرعيا .

ولا يمكن أن تصبح اليهودية حركة قومية ، الا اذا اصبح الارثوذكس مثلا .. قومية ، أو اصبح الكاثوليك قومية ، أو أصبح الشيعة قومية ..

ان هدم هذا الأساس النظرى للصهيونية .. هو أمر ضرورى فى مخاطبة العالم الخارجى ، لانه المقدمة التى تستخدمها الصهيونية فى المطالبة بـ « أرض اسرائيل التاريخية » . أن هذا التعبير هو الهدف الأساسى للحركة الصهيونية من البداية . وبعد قيام اسرائيل .. اصبح هذا الهدف قائما وواردا فى جدول اعمال التفكير السياسى والعسكرى الاسرائيلى . أنه هدف يريد الحصول على سيناء والاردن ومرتفعات سوريا وجنوب لبنان . وبالنسبة لهذا الهدف النهائى لا يوجد يمين ويسار بين الأحزاب السياسية فى اسرائيل . لا يوجد معتدل ومتطرف . ان الاعتدال والتطرف أمر يتعلق فقط بالاسلوب أو بالتوقيت .

مثـــلا ..

فى سنة ١٨٩٧ كان الصـــهيونى المتطرف يطالب بوطن قومى لليهود . والمعتدل يطالب بجمعية يهودية .

وفى سنة ١٩١٧ أصبح المعتدل يطالب بوطن قومى والمتطرف يطالب بدولة يهودية .

وفى سنة ١٩٤٧ كان الصهيونى المعتدل يطالب بدولة يهودية فى جزء من فلسطين والمتطرف يريد كل فلسطين .

وفى سنة ١٩٥٧ اصبح المعتدل يطالب بكل فلسطين والمتطـــرف يطالب بضم سيناء والعريش وعدم الانسحاب منهما .

وفى سنة ١٩٦٧ اصبح المتطرف يطالب بضم ســـيناء والعريش والاردن ومرتفعات سوريا .. أما المعتدل فيطالب بمعـــاهدة صلح نهائى مع العرب .

ان الهدف النهائى الثـــانى قائم دائما ، بالرغم من أن أهدافا بديلة قد تحل محله من وقت لآخر ، أو بتعبير « تيودور هرتزل » مؤسس الحركة الصهيونية الحديثـــة : « اننا فى حركتنا نحو الهدف النهـــائى .. يجب أن نكون كالقطار الذى يتـــوجه الى محطتـــه النهائية . ان القطار قد يتوقف فى محطة هنا أو محطة هناك لكى يتزود بالوقود . لكنه يستأنف سيره دائما نحو محطته المقصودة . فهو لا يتراجع عنها ولا يتراجع منها الى الوراء » .

***

هذا عن الهدف .

اما عن الأسلوب .. فان النتيجة التى نخرج بها من دراســـة اسلوب العمل السياسى الصهيونى منذ بدايته تتركز فى :

ان الحركة الصـــهيونية منذ بدايتهـــا تضـــع عينيهـــا على القوتين الكبيرتين اللتين تتنازعان مناطق النفوذ فى العالم عادة . وفى مواجهة ذلك تحفظ الحركة الصهيونية لنفسها دائمـــا بجناحين . كل جناح منهما يعمل مع ــ وداخل ــ كل من القوتين الحـــاكمتين فى العالم .

ونحن نجد هـــذا الاســـــلوب قائما فعلا فى التطبيق ابتداء من الحرب العالميـــة الاولى بالذات . فعنـــدما قامت الحرب فى ســـنة ١٩١٤ واجهت المنظمة الصهيونية نفســـها بســـؤال : مع أى من الطرفين المتحاربين تقف ؟ مع المـــانيا وتركيـــا ؟ أو مع بريطانيا وفرنســـا .

وقررت المنظمة وقتها الا تضع « كل البيض فى سلة واحدة » . قررت أن تقسم نفسها الى فرعين يعملان مع الطرفين المتحاربين . كان أحدهما يعمل مع المانيا وتركيا ، والثانى يعمـــل مع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحـــدة . وعلى كل فرع من الاثنين أن يقنع الطرف الذى يعمل معه ومن داخله .. انه أكثر تحقيقا لمصالحه . وبهذا الاسلوب ضمنت المنظمة الصهيونية أن انتصار اى طرف فى النهاية .. سيؤدى الى تحقيق مطالبهم منه .

وفى جميع المراحل التالية ، نجد هـــذا واضـــحا فى أســـلوب عمل المنظمة الصهيونية ، ثم اسرائيل بعـــد قيامها . فهى تحتفظ دائما تحت الطلب ــ بجناح موال لكل طرف من الطرفين المؤثرين فى العالم .

وحين يعمل كل جناح من اجنحة الصهيونية لحســـاب احـــدى القوى الدوليـــة الكبرى فانه ــ فى الواقع ــ لاينتمى الى هـــذا الطرف أو ذاك . انه صهيونى أولا ، وصهيونى الى النهاية .. انه قد يعمل لحساب هذه الكتلة فترة ، لكنه يعمل لحسابها بالقـــدر الذى يحقق له فى النهاية مكاسب جديدة .

وقد سمح هذا الاسلوب فى عمل الحركة الصـــهيونية .. بألا تقامر بمصيرها كله مع احدى الكتل الدولية ، وبأن أهدافهـــا حين

تتحقق فهى تتحقق بمناسبة ، وبحماية ، تحرك الكتلة الدولية التى تعمل معها .

ومنذ قيام اسرائيل وهى تطبق هذا الاسلوب تماما . بل ان الجيش الاسرائيلى نفسه ، بدأ أصلا فى عشرينات هذا القرن كقوة تعمل لحساب بريطانيا ، وعلى نفقتها . وفى الحرب العالمية الثانية قامت المنظمات الصهيونية فى فلسطين بالتجسس ضد المحور لصالح قوات الحلفاء . وبهذا الاسلوب حصلت على التمويل والسلاح والخبرة لنفسها واستخدمت كل ذلك فيما بعد لمصلحتها الخاصة ، وأحيانا ضد الدول الموردة نفسها .

وقبل حرب ١٩٦٧ بفترة وجيزة ، أصدر « أبا ايبان » وزير خارجية اسرائيل الحالى كتابا بعنوان « صوت اسرائيل » . ان الكتاب هو مجموعة خطب ومحاضرات ألقاها ابا ايبان « ٢٣ محاضره وخطبة » ، أبان عمله سفيرا لاسرائيل فى أمريكا .

ولأن مادة « أبا ايبان » موجهة أصلا للرأى العام الامريكى ، فاننا نجد أن الفكرة الرئيسية التى لا تغيب مرة فى هذا الكتاب ، هى اصرار « ابا ايبان » على ربط مصير اسرائيل بمصير السياسة الامريكية بصفة عامة فى الشرق الأوسط . انه يقول : « ان اسرائيل دولة صغيرة حديثة ، مسالمة ، ديموقراطية ، تريد العيش فى سلام .. بينما يحيط بها جيران كبار ، أقوياء عدائيون ، اقطاعيون . وازاء الرعب الذى تعيش فيه اسرائيل فانها أحيانا تجد نفسها مضطرة لأن تهب الى الدفاع عن نفسها مثلما حدث فى ١٩٥٦ . واسرائيل بعملها هذا انما تدافع عن الحضارة الغربية نفسها .

هكذا يقدم « أبا ايبان » اسرائيل باعتبارها جزءا من المعذبين فى الأرض ليس هذا هو المهم . ولكن المهم هو انه يستمر الى أن يصل الى السطر الذى يؤجله ٢٩٩ صفحة : ان الصراع بين الدول العربية .. واسرائيل ، هو فى جوهره صراع بين الشرق والغرب . صراع بين حضارة ..وحضارة .

يعنى : اذا كان على الغـــرب ان يدافع عن نفســـه فى الشرق الأوسط .. فليبدأ بالدفاع عن اسرائيل . واذا كان الغرب يعيش فى حالة عداء مع العرب فليست اسرائيل هى السبب . ان هـــذا العداء العربى نحو الغرب هو عداء حتمى لا دخل لاسرائيل فيه . انه عداء له أسبابه التاريخية الخاصة ، واسرائيل ليست واحدا من هذه الأسباب .

والمسالة التى لاشك فيهـــا فعلا .. ان لدينا أسبابنا الخاصـــة لمعاداة الغرب . هذا صحيح . ولكن مساندة الغرب لاسرائيل هى رأس هذه الاسباب . لقد اشتركت فرنسا فى العـــدوان على مصر سنة ١٩٥٦ ، وعاملها العرب بما تستحقه جزاء على هذا التواطؤ . لكن فرنسا الآن ــ أثناء وبعد حرب ١٩٦٧ ــ تقف موقف الحياد ، وبالتالى فان العرب أعلنوا لها عن تقـــديرهم لهـــذا الموقف . ولم يقف عربى واحد ليعلن : ان عداءنا نحـــو فرنســـا هـــو مســـألة « حتمية » . مسألة قدرية لا مفر منها ولا فكاك .

***

ان هذا يذكرنا بالأســـطورة الشرقية القديمة التى تقول : ان ثعلبا ركب على ظهر فيل . وحينما كان الفيل يشق طريقه فى الغابة دافعا الاشجار جانبا ، فان الثعلب كان ينفخ صـــدره بعجب قائلا : كم أنا قوى ؟ !

وقد لا تـــكون اسرائيـــل هى بالضبط الثعلب نفســـه الذى تتحدث عنه الاسطورة ! ولكنها بالتأكيد تتحرك بمصاحبة الفيـــل الضخم الذى يتحرك طبقا للاسطورة . لهذا .. علينا ان نفهم كل القوى التى تحالفت معها اسرائيل أو « ركبتها » اسرائيل .

***

ان اسرائيل التى نراها اليوم .. هى ثمرة الحنظلة المرة التى فرست فى الأرض العربية . ثمرة روتها قوى دولية عديدة تحالفت معها فى كل مرحلة . فى البدء كان التحالف الصهيونى الأول مع

بريطانيا . فى النهاية كان التحالف الصـــهيونى الثانى مع أمريكا . وعلى الطريق بين البدء والنهاية كانت هناك تحالفات جانبية كثيرة امتدت لاكثر من ٧٠ ســـنة . فخـــلال تلك المـــدة وضعت الحركة الصهيونية على راسها قبعات كثيرة ، كان آخرها القبعة الامريكية التى تضعها على راسها الآن .

واذا كان الصراع بيننـــا وبين اسرائيـــل اصبح يحتـــاج اكثر من اى وقت مضى ، الى الحـــركة .. واذا كان التـــوازن الدولى وموقف القوى الكبرى قد وصل الآن الى أقصى ما يمكن من درجات السكون والثبات . فان الأمر أصبح يحتاج الى مجهود خارق من جانبنا لكى نفلت من وسط طرفى المقص ، الذى أصبحنا نقف فيه.

* * *

انها ليست أول مرة نقف فيها وسط هذا المقص . فمن المضحك هنا ــ بقدر ما هو مؤلم للغاية ــ أن نرى كيف يكرر التـــاريخ نفسه . فقبل حرب ١٩٦٧ بمائة وثلاثين سنة ، تعرضت مصر لنفس الموقف بالضبط .

لقد رأى محمد على ــ حاكم مصر وقتها ــ أن العالم تتقاسمه قوتان كبيرتان هما بريطانيا وفرنسا . ولأن التنافس على مناطق النفوذ كان شديدا بين الدولتين الكبيرتين ، فقد رأى محمد على أن يستعين بالثانية على الأولى . ولقد أغراه النجاح المبدئى لهذه السياسة بأن يستمر فيها ، فلم يعرف ما هى بالضبط النقطة التى يجب أن يتوقف عندها .. ان فرنسا ساعدته اقتصاديا وعسكريا ، على أساس أن كل انكماش فى نفوذ بريطانيا هو مكسب أوتوماتيكى لها .

ولكن فى اللحظة التى بدأت مصر تصبح فيها قوة مصرية ، فان القوتان الكبيرتان اتحدت مصالحهما ضدها . نعم : لم تكن بريطانيا تريد مصر فرنسية ، ولم تكن فرنسا تريد مصر بريطانية .. ولكن الاثنان معا لا يريدان مصر مصرية . وفى لحظة الصدام الرهيبة ،

تلقى محمد على الدرس بكل قسوة : انه قامر بأكثر مما يجب . ان فرنسا ليست مستعدة للمخاطرة بصدام دولى مع بريطانيا من أجل أهداف مصرية . والنتيجة : اتحدت القوتان ضد مصر ، وضد محمـــد على .

ولقد كان المجهود الدبلوماسى الاسرائيلى فى السنوات العشر ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٤ ، يركز على مسألة هامة للغاية : كيف تقامر اسرائيل على الجواد الرابح فى المعركة ؟ لقد دخلت لعبة الحرب الباردة الى المنطقة وعلى كل طرف فى الصراع ــ نحن واسرائيل ــ أن يختار حليفه . وخلال عشر سنوات تالية كانت النتيجة هى : انها لم تعد معركة عربية اسرائيلية ، وانما معركة بين الشرق والغرب ، بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا .

ومرة أخرى أطل لنا الدرس بكل وضوح : لن يحمل هموم مصر .. غير أبنائها . لن يحقق آمال العرب .. غير العرب . درس عنيف ظهر لنا كما لو كان اكتشافا مفاجئا ، مع انه موجود فى التاريخ ــ تاريخنـــا نحن بالدرجة الأولى ــ قبل تاريخ اى شعب آخر غيرنا .

ان « أدوات الشرط » فى التـــاريخ تمثل فى العادة أسئلة مثيرة لليأس وخيبة الأمل ، لأنها أسئلة افتراضية ، ولأنه لا جواب لها . فهل « لو » اختفى ذلك السبب .. كانت ستختفى النتيجة ؟ لو .. لو .. لو .. كلها أسئلة افتراضية اجاباتها فى مجال الاجتهاد الشخصى الذى قد نختلف فيه .

* * *

ولكن الذى لن نختلف عليه ابدا ، هو أن هذه هى المرة الثالثة . فى هـــذا القرن ــ بعد الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ وحرب ١٩٤٨ التى نقف فيها نحن وسط طرفى المقص ، بينما يعاد النظر الى خريطة الشرق الاوسط داخل اطار صراع دولى . لهذا .. فان النصر أو الهزيمة هذه المرة هو نصر ــ أو هزيمة ــ لفترة طويلة قادمة ، وربما لقرون طويلة قادمة .

لهذا السبب .. فاننا أمام معركة وطنية . معركة ، لن يكون الاختيار فيها بين موقف اليمين وموقف اليسار . انما الاختيار سوف يكون بين الوطنية والخيانة .. انها حرب لاعادة استقلال الشرق الاوسط . وهى حرب تولد فيها العروبة من جديد .

وليس هذا أول امتحان تدخله منطقتنا بروح الثورة .

لقد كنا ثوارا فى سنة ١١٨٧ ، يوم حارب الشعب بقيادة صلاح الدين ضد جحافل التعصب الصليبى القادم من أوربا .

وكنا ثوارا فى سنة ١٢٦٠ ، عندما رفضنا انذار « هولاكو » قائد جيش المغول ، وانتصرنا عليه فى عين جالوت ، وكانت أول هزيمة نزلت بالمغول فى عهد هولاكو .

وكنا ثوارا يوم ان نجحت المقاومة الشعبية المصرية فى طرد الفرنسيين سنة ١٨٠١ .

وكنا ثوارا فى سنة ١٨٠٧ — عندما ثارت رشيد ضد الحملة الانجليزية بقيادة « فريزر » ، وانتصرنا عليهم انتصارا حاسما فى قرية الحماد .

وكنا ثوارا سنة ١٨٨١ بقيادة أحمد عرابى .

وكنا ثوارا فى سنة ١٩١٩ — عندما وقفت روح الشعب ضد مدافع الانجليز .

***

و .. لا أريد أن استطرد ، ففى كل مرة تعرضنا فيها لتآمر دولى .. كان الشعب الواحد الشجاع يصبح اغلبية .

وفى مواجهة حالة الميوعة والجمود فى الموقف الدولى بعد ١٩٦٧ ، فان رد الفعل الأساسى هو أن القوة أصبحت هى الحق

وليس العكس . والقوة بالنسبة لازمتنا المعاصرة انما تعنى أساسا ــ وفقط ــ القوة العربيــة . فهى وحــدها التى يجب أن تضرب المثل ، وهى وحدها التى ستصمد فى المواجهة مع اسرائيل . ولكى نكون الطرف الأقوى فى هذه المواجهة ، فلا بد أن نفهم عدونا أولا : كيف يفكر ، كيف يتحرك ، كيف يعمل . فكلمــا زادت معرفتنــا الآن .. قل أســفنا فى المســتقبل . لان الأقوياء فقط هم الذين يحرصون على هذه المعرفة . وفى النهاية .. نجد أن المعرفة هى أيضا .. قوة . وفى النهاية ، نقول مع الصينيين القدماء : اعرف نفسك مرة ، واعرف عدوك مرة ، ثم حاربه مائة مرة .

وفى صــدامنا مع اسرائيل .. لم يقل أحد بعــد .. الــكلمة الأخيرة . والذى يصمم أكثر ، وبعد أكثر ، ويعــرف أكثر .. هو الذى سيضحك فى النهاية أكثر ! .

ان هــذا معناه .. ان أمامنــا امتحــانا قاســيا لصــلابتنا ورجولتنــا . ولابد أن يســاعد بعضنا بعضــا فى اجتيــاز هذا الامتحــان .. !

* من يتقدم .. نتبعه .
* ومن يتأخر .. نشده .
* من يتقهقر .. نرفعه .
* من يسقط .. نرفعه .
* من يمت .. نثأر له .

دار الشروق

مطابع الاهرام التجارية
رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٨٤ / ١٩٧٣

هذا الكتاب

منذ سنوات، ظهر
"موشي دايان" وزير الدفاع
الاسرائيلي على شاشة التليفزيون
البريطاني، ووقتها .. سأله
المذيع: ان الخطة التي اتبعتها
في حرب ١٩٦٧ هي الخطة
نفسها التي ذكرتها في كتابك
"مذكرات حملة سيناء - ١٩٥٦"
.. ألم تكن تخشى أن العرب قد يعرفون
من كتابك .. خطتك المستقبلة
التي ستتبعها في حرب ١٩٦٧،
فيستعدون مقدماً لمواجهتها؟
ورد موشي دايان قائلاً:
لا .. لأن العرب لا يقرأون!

Bibliotheca Alexandrina
0601585

مطابع الشروق

الثمن: ٥٠ قرشاً